المذهَب الرمِزّى

ما هو الأدب الرمزى ● الأدب العربى والرمزية ● رمزيات من إبسن ● براند ● تعليق على هذه المسرحية ● بيرجنت

ما هو الأدب الرمزى ؟

الأدب الرمزى هو ذلك الأدب الذى يقرؤه القارىء العادى فلا يفهم منه إلا ظاهره، أما القارىء المتأمل فيفهم منه هذا الظاهر ، ولكنه لا يقف عنده ، بل هو لا يكاد يمضى فى القطعة الأدبية الرمزية حتى يبهره ما تحت سطحها . . وما تحت هذا السطح لباب الأدب الرمزى ، ومن أعاجيب هذا اللباب أنه يتخايل بصور مختلفة فى ذهن القارىء المتأمل . . صور تتفاوت فى مقدار ما فيها من الجمال والمعانى والأهداف . . والأعجب من هذا أن قارئا متأملا آخر قد تتخايل له صور جديدة غير التى مرت بذهن القارىء المتأمل الأول . . وهكذا . . وهذا هو الذى حدث عندما نظم إبسن قصيدته المسرحية الرمزية : « بيرجنت » . . إنه لم يقصد مطلقًا أن تكون هذه القصيدة المسرحية رواية تمثيلية تظهر على خشبة المسرح . . بل هو قد ألفها للقراءة ولتنبيه شباب بلاده الكسلان المتراخى إلى عيوبه الخلقية والسلوكية ، وإلى أنه يسلم روحه لأحلام الكسالى المتراخين فى زمن استيقظت فيه الأمم على صوت الثورة الصناعية الاشتراكية المدوى وما أحدثته الأفكار الفلسفية العقلية الجديدة من وعى عام فى كثير من أركان العالم . . لكن إبسن سمع أن رجال المسرح الألمانى يخرجون مسرحيته الرمزية « بيرجنت » فلم يملك إلا أن سافر إلى ألمانيا ليشهد ماذا يصنع هؤلاء الألمان فى تلك القطعة التى يكاد إخراجها فى المسرح يكون مستحيلاً . . فلما شهدها هناك راعه الإخراج ، ثم راعه التمثيل . . لكن الذى راعه أكثر وملك عليه تفكيره هو أن هؤلاء الألمان قد فسروا المسرحية تفسيراً رمزيّا وخرجوا لها من المعانى ما لم يخطر للمؤلف على بال! . . وهذا هو الأدب الرمزى !

الأدب العربى والرمزية :

والأدب العربى من أغنى الآداب العالمية بالأدب الرمزى . . وكتبنا الدينية من أروع الكتب التى تزخر بأدب رمزى لا نظير له . . وكتبنا الأدبية . . كألف ليلة ورسالة الغفران للمعرى وحيى ابن يقظان والمقامات . . بها من الصور الرمزية ما يعدّ أدبًا فذّا فى بابه . . كما أن أدب المتصوفة حافل هو أيضا بالرموز . . وسيأتى ذلك فى حديثنا عن المذهب الصوفى فى المسرح .

والحركة الرمزية فى الأدب الأوربى الحديث حركة نشأت فى أواخر القرن التاسع عشر . ونشأت فى فرنسا أول ما نشأت ، وكان أبطالها رجالاً بعيدين عن المسرح وعلى رأسهم « مالارميه » « وريمبود » « وفرلان » « وبودلير » . . والذى حفزهم إلى حركتهم الرمزية هو الرد على رجال المذهبين الواقعى والطبيعى . . فقد أنكروا على هؤلاء اغترارهم بظواهر الطبيعة والواقع . . وأن الحقيقة لا تبدو فى صورتها الصادقة الأصيلة إلا فى أعماق الأشياء وليس تحت سطحها ، وكانت طريقتهم فى الكشف عن هذه الأعماق بالرمز والإيحاء والتلميح ، وليس بالجهر والفضح والتصريح . . لأن الرمز والإيحاء والتلميح فى نظرهم هى عوامل خلاقة ، تولد المعانى فى ذهن القارىء والمتفرج . . فى حين الجهر والفضح والتصريح من عوامل الهدم وتخريب الصور الفنية وتعويد الذهن ، ذهن القارىء أو المتفرج ، البلادة والاتكال على غيره فى معرفة الأشياء ، والوقوف به عند ظاهرها . . وقوفاً فقيراً خاطفاً .

ولهذا السبب حفلت آداب هؤلاء الرمزيين وقصائدهم بالألغاز والمعميات وبالصور البيانية وألوان التشابيه والمجازات التمثيلية المعقدة تعقيداً يبلغ حد السخف فى معظم الأحيان . ولعل استعمال الصور الرمزية فى القصة المسرحية أهون خطباً من استعمالها فى الشعر والأغراض الكتابية الأخرى ، وقد يسيغ الذوق والذهن من تلك الصور الرمزية فى القصة والمسرحية ما لا يستطيع أن يهضمه أو يسيغه فى غير القصة والمسرحية من تلك الصور .

وكثيرون من الرمزيين الشعراء قوم ذو أمزجة سوداوية مظلمة ، وهم لا يرون للحياة

رسالة ولا للعيش هدفًا ولا للدنيا قيمة إلا ما يهتبلونه فى ساعتهم التى هم فيها من لذة . . أيًا كانت هذه اللذة . . ومعظمهم يطفئون سراج حياتهم بالسموم البيضاء والمخدرات السوداء والخمر بجميع ألوانها ، وأعجب العجب أنهم يفخرون بهذا اللقب الوقح الذى يطلقونه على أنفسهم فى كثير من التباهى والخيلاء . . لقب المنحطين . . الذى تسمى به من ذكرنا من رمزيى المدرسة الفرنسية فى أول هذا الكلام .

ومعظم الرمزيين يرفضون الأدب الموضوعى ، سواءٌ كان أدباً اجتماعيّا أو أخلاقيّا ، وهم إنما يرمزون لمجرد الترف الذهنى واللذة الفكرية المجردة ، ومن ثمّ كان مبدؤهم الذى يتشبثون به هو مبدأ : « الفن من أجل الفن » و « الصور الجمالية من أجل الصور الجمالية » .

وقد خالفهم فى ذلك كثيرون من الرمزيين المسرحيين ، وفى مقدمتهم إبسن وميترلنك وهاوبتمان و إدمون روستان وسودرمان وغيرهم .

رمزيات من إبسن :

يمتاز إبسن بارتقاء الغريزة الفنية فى معظم مسرحياته . وقد ذكرنا فى كلامنا عن المذهب الطبيعى أن معظم المسرحيين الطبيعيين قد تأثروا به فيما كتبوا ، لكنك حينما تقرأ القليل مما كتبه إبسن مما له صلة بالمذهب الطبيعى ، كمأساة الأشباح مثلاً ، نلاحظ أن غريزة إبسن الفنية ارتفعت بهذه المأساة عن أوضار المذهب الطبيعى حتى جعلتها تحفة فنية بالفعل . . ولولا أثر البيئة والوراثة فى المسرحية لعددناها من أرقى مسرحيات إبسن الواقعية . ومثل هذا يقال عن مسرحياته الرمزية التى لا نستطيع أن نلخص منها تلخيصًا سريعًا بكل أسف غير مسرحيتيه « براند » و « بيرجنت » . . ففى هاتين المسرحيتين ، كما فى جميع مسرحيات إبسن الرومنسية والواقعية التى لا تخلو كلها من العنصر الرمزى ، نلاحظ نقاء غريزة الرجل الفنية ، وشدة شغفه بتخليص الإنسانية من أدرانها و إنارة السبيل أمامها لتبلغ حياة أنقى وتتبع فلسفة أخلاقية أرقى ، وتتخلص من رذائلها الاجتماعية التى هى فى الجملة رذائل أممية لا تختص بها أمة عن أمة ولا شعب عن شعب .

براند :

ها نحن أولاء ، فوق جبل عال فى شمال النرويج . . والريح ريح صر كما نقول نحن العرب إلا أن الماء لم يتجمد فى البرك والأنهار بعد وإن يكن ماءً مثلوجًا شديد البرودة، والضباب منتشر حولنا حتى تكاد الرؤية أن تتعذر على أقوى الأبصار . وها نحن نرى القس براند يدلج فى هذا الجو المعتم البارد ، ومن ورائه فلاح نورويجى وابنه . . إن القس ماض فى طريقه إلى حيث تقيم ابنة هذا الفلاح لكى يسمع منها اعترافها ، ولكى يباركها قبل أن تموت ، والفلاح نفسه هو الذى طلب هذا إلى القس براند . . لكن الفلاح لا يريد أن يتبع براند بحجة أنها أمام نهر ثلجى لم يتجمد ماؤه بعد . . والفلاح ينصح لبراند بألا يجازف بنفسه فى هذا الجو العاصف الشديد الضباب حتى لا يسقط من حالق ويفقد حياته . . وإلاّ فمن أين للإنسان بحياة ثانية إذا فقد حياته التى لا يملك حياة غيرها ؟

وبراند على الرغم من نصيحة الرجل يأبى إلاّ أن يمضى ليتم رسالته . . وهو يسأل الرجل هل يرضى أن تلفظ ابنته روحها قبل أن تتخلص من خطاياها بسماع الغفران وتلقى البركة ! . . ويجيبه الفلاح بأنه يسره أن تتم لابنته جميع الشعائر الدينية قبل موتها ولو كلفه ذلك أن ينزل عن مائة تاج لو كان ملكًا . . بل يسره أن يتم ذلك ولو باع فى سبيله داره التى تؤويه . . أما أن يكون ثمن ذلك روحه التى بين جنبيه فذلك شىء آخر، ومسألة فيها نظر . . فهو أب لأولاد غير هذه البنت ، وزوج لزوجة تنتظره . .

ويشتد الجدل بين القس والفلاح . . وينتهر القس صاحبه ويأمره بالعودة إلى زوجته وحده . . لأنه رجل لا يعرف الله ، ولهذا فالله لا يعرفه ؟

ويجيبه الفلاح إنه لا شأن له بالله ولا بالقس فى مثل هذا الجو الملبد بالغيوم ، وفوق تلك المهاوى المهلكة ، لأن زمن المعجزات انتهى . . أيام أن كان المؤمنون يمشون فوق سطح الماء دون أن يغرقوا فيه . . ودون أن تبتل أقدامهم .

ويحاول الفلاح أن يثنى عزم القس عن المضى فى طريق الموت هذا ، حتى لا يكون مسئولاً عنه أمام الحكومة . . لكن القس ينتزع نفسه من الرجل انتزاعًا ويمضى فى

طريقه مهما كان فيها من خطر . . إنه يأبى إلا أن يقوم بواجبه الدينى لهذه الفتاة المحتضرة ولو كلفه ذلك حياته !

. . وتنقشع الظلمة . . وتشرق الشمس . . ويرى براند فتى وفتاة يرفان فوق الجبال من بعيد وهما يتضاحكان ويأخذان فى دعابة حلوة . . والفتى يدعو الفتاة قائلاً : إنها فراشته الحلوة التى يصنع لها شبكة ليصيدها بها . . وقبل أن تجيبه الفتاة إذا هما يسمعان القس براند يحذرهما حتى لا يقعا فى الوهدة التى وراءهما . .

ويطمئنه إينار ـ وهذا هو اسم الفتى ـ لأنه لا داعى إلى الخوف عليه وعلى فتاته . . وتقول آجنس Ajnes ـ وهذا هو اسم الفتاة ـ إن لعبتهما تستغرق حياتهما كلها . . فى حين يقول له إينار : إنهما فى طريق مشمس طويل . . طويل . . ، لن ينتهى . . ولو سارا فيه مائة عام ! . . وإنهما قد أقبلا من السماء ليلعبا ويمرحا . . حتى إذا انتهى اللعب والمرح . . عادا إلى السماء من جديد ! . .

ثم نعرف من حديث إينار أنه مصور فنان ، يحمل عدة تصويره فى حقيبة فوق ظهره . . وأنه يحمد الله القدير الذى وهبه فراشته آجنس تلك الفتاة الحبيبة زوجة له . . تلك التى جاءت معه من الجنوب لتشرب من هواء الجبال ومن ألق الشمس وقطرات الندى ولتتزود من عبق الراتنج . . « إن صوتًا ملهمًا هو الذى يتولى زمامى . . قائلاً : اذهب وانشد نبع الجمال بين الغابات والأحراش ، وبين المروج التى تفتحت فيها الأزاهير ، هاتفة فى سويداء قلبك بصوتها العذب المصفى . . هناك . . هناك تحت سقف السموات التى تسبح فيها قطعان السحب . . حيث صورت آية فنى . . الآية ذات الخدين الموردين صبغتهما حمرة الخجل . . والعينين الضاحكتين ، والابتسامة التى تغنى بالسعادة بين جوانحى ! . . » .

وتقول له آجنس : «إنك صورت ، لكنك لم ترنى ! . . إنك فى جرعة عمياء واحدة حسوت كأس الحياة ، ثم وقفت من جديد ذات صباح . . ساهماً حالماً . . وعصاك الجبلية فى يدك . . وحقيبتك فوق ظهرك ! » .

ويصف الفنان وزوجه كيف تزوجا ، وكيف فرا من المحتفلين بقرانهما ليقرا فى

حضن الطبيعة . . هنا . . وليتخذا من ركن هذا الجبل معبداً لحبهما . . معبداً يكون كهنته أهل المرح والفرح .

ويريد براند أن ينطلق . . إلاّ أن إينار يتشبث به . . ثم يعرفه . . إنه براند زميله فى الدراسة عهد الصبى ! . . إنه هذا الشخص المنطوى على نفسه ، العزوف عن اللعب والمشاركة فى مباهج الحياة! . . إنه لم يتغير ! . . إنه هو هو ! . . إنه هذا المخلوق الجاد الصارم . . الذى زادته حرفة الكهنوت صرامة وجهامة . .

ويسأله إينار عن وجهته فيقول : إنه ذاهب ليدفن الوثن . . الإله الذى يربطه الناس بتلك الأرض الفانية . . وظلوا عاكفين على عبادته ألف سنة . . لقد آن أن يدفن وتستريح الدنيا منه .

ويحسبه إينار مريضاً . . لكن براند يطمئنه ، فهو سليم معافى ، وليس المريض إلا هذا الجيل الرخو الذى به حاجة ماسة إلى العلاج . . الجيل الذى يلهو ويلعب ويمرح ، ويؤمن ، لكنه يغض الطرف عن هذا « الواحد » الذى لبس تاج الشوك من أجل خلاصه . . لكن الجيل الرخو لا يجد كما كان يجد لابس هذا التاج . . « إنك تستطيع أن تطرب وتمرح يا إينار . . فارقص . . أما إلى أين تنتهى رقصتك . . فهذا موضوع آخر . . » .

ويجيبه إينار : « إن النغمة التى يسمعها منه نغمة على كل لسان اليوم . . وإن براند من هؤلاء الكهان المتزمتين ، بل من أشدهم تزمتًا . . الكهان الذين يمسخون الحياة فيجعلونها واديًا للبكاء وللدموع . . وبودهم لو استطاعوا أن يلبس الناس جميعًا أسمالاً من الخيش الخشن ويذهبوا وراءهم إلى دركات الجحيم الكبريتية ! » . .

ويقول له براند إنه ليس واعظاً ولا خطيباً مشقشقاً ، ولا كاهنًا . . ولا يثرثر كما يثرثر الكهان . . بل هو لا يدرى إن كان مسيحيّا . . ولكن الذى يدريه هو أنه «رجل » وأنه يلمس بيده موضع الداء الوبيل الذى يعتصر ماء الحياة من أصلاب بلاده .

ويدهش إينار من قول صاحبه ، ويقول إنه أول من زعم هذا فى بلد اشتهر بنوه بالصلابة وقوة البنية من بين أهل الأرض جميعاً .

ويجيبه براند : إن هذا كان جميلاً لو أنه حق . . إنما الصحيح أن أبناء الجيل ليسوا إلا عبيد شهواتهم . . أناس متقلبون لا يثبتون على حال . . يصورون إلههم إلها عبيطا أبله واهى الإرادة . . يصورونه فى الصورة التى تناسب زمانهم وشهواتهم . . يصورونه إلها لعبة يتصرفون فيه كما يشاءون . . وهم بذلك يفصلون بين الحياة ، والإيمان والعقيدة . . إنهم يصورونه إلهًا أصلع الرأس ، وخط الشيب شعره ، يغطى صلعته بطاقية صغيرة . . أما إلهه هو . . أما إله براند ، فشىء آخر . . إنه عاصفة إذا كان إلهكم ريحا . . سميع رحيم إذا كان إلهكم أصمّا وقاسيًا لا يرحم . . فيّاض بمشاعر الحب ، إذا كان إلهكم بليداً لا يحب . . إنه إله قوى . . شاب مثل هرقل . . إذا كان إلهكم قد أصبح خرفًا ضعيفًا ، فى السبعين من عمره ! . . » .

ويسأله إينار إن كان هو الذى سيصلح فساد هذا الجيل ؟ . فيقول له براند : «نعم . . لأنى ولدت لكى أعلن تلك الحرب . . ولكى أطب لهذا الجرح الذى لا ينفك يعتصر العافية من قلوب مواطنيه ! . . » .

وينصحه إينار بألا يطفىء عود الثقاب حتى يكون المصباح قد اشتعل .

ويجيبه براند إن الذى يهدف إليه ليس شيئًا جديدًا لم يكن موجوداً من قبل ، إنه يهدف إلى الحق الأبدى ويدعو إليه . . « إن الشرائع والكنائس تأتى وتروح . . وغايتها غاية غير غايتى . . إن كل ما هو مخلوق له نهايته ولابد . . وهو يتغير ويتحول ويصيبه البلى ، ويذهب ليحل غيره محله . . وليس بباق إلاّ شىء واحد . . هو الروح . . الروح التى إن ضلت مرة يستنقذها الفداء فتعود كما كانت . . وحينئذٍ يعود المجد لله . . وينتصر الإنسان ، أبدع ما خلق الله . . يعود شابّا قويّا نقيّا . . و . . » .

ولكن إينار يكون قدضاق ببراند فيؤذنه بالفراق . . وهنا يوصيه براند بأن يفصل بين النهار والغسق . . وليتذكر أن الحياة فن . . أليس إينار فنانًا ؟ ! . .

* * *

وتخلو الدنيا لإينار وآجنس من جديد ، ولكن آجنس تبدو الآن متعبة . . لقد جاء هذا القس فقطع عليهما سعادتهما . . وها هو ذا إينار يحاول أن يرد إليها نشاطها ، إلاّ

أنها تنظر فى الأفق القريب فترى براند لا يزال ماضيًا فى نجواه الروحية . . ثم إذا هو ـ أى براند ـ يرى فتاة لطيفة فى الخامسة عشرة ، اسمها جرد Gerd وهى تقذف صقراً بحجارة فى حجرها فيرجوها ألا تفعل . . ثم يسألها عن وجهتها فإذا هى وجهته أيضًا . . ويقول لها : إنهما يستطيعان أن يكونا رفقة واحدة ، لكن الفتاة تقول له : إنها لا تستطيع أن تصعد أعلى مما فعلت . . فيقول لها إنهما قريبان من الكنيسة . . وتنظر جرد إلى الكنيسة فتقول : « إنها كنيسة حقيرة ! . . »، فإذا سألها : « لماذا ؟» . . أجابته : «لأنها صغيرة جداً ! . . » . . فيسألها براند : « وأين رأيت كنيسة أكبر من هذه؟ . . » . . ولكن الفتاة تستودعه لأنها استطاعت أن تجد كنيسة أكبر وأعظم .

وتتركه الفتاة وتتجه إلى أعلى صعداً . . فيسألها براند : إن كان هذا هو طريق كنيستها . . أن تتجه إلى حيث تسقط من حالق . . وتقول له : « بل تعال أنت معى وسأريك كنيسة بنيت من الثلج والبرد ! » .

لقد كانت الفتاة تعنى بركة من الثلج مغطاة من أعلى بما يشبه السقف من الثلج أيضًا . . بركة ليس فيها إلا الهلاك والموت . . ولقد حذرها براند من الذهاب ثمة . . لكنها تقول له : « إنما الهلاك هو . . هناك . . تحت . . وليس أعلى ! . . » ثم تدعوه ليذهب معها حيث تتولى الهيارات الثلجية والعواصف الهوج غناء القداس بنفسها !

ويدرك براند أنه تلقاء فتاة محيرة . . فتاة من أهل هذا الجيل الضال الذى لابد له من هادٍ ولابد له من مرشد . . لابد له من « براند » ينجيه من طاعون العصر . . وريح الفساد . . حتى يعود إلى حياة « الروح » .

وتصعد الفتاة إلى أعلى . . ويهبط براند إلى أسفل .

* * *

ويصل براند إلى حيث يجلس عمدة القرية قريبًا من كنيستها وقد ازدحم من حوله القرويون الذين أصابتهم المجاعة واجتاحهم الطاعون وتخطفهم الموت والمرض ؛ ليكتالوا من القمح الذى راح العمدة يوزعه بالحساب والقسطاس ، فإذا براند يعيرهم ويعنف عليهم ، ويقول : إن الله سبحانه قد سلط عليهم الجوع والمرض ليبلوهم

ويمتحنهم لأنهم لم يعودوا ينظرون إليه فى عليائه بل استولت المادة على قلوبهم وراحوا يتقلبون فى وحل الخطيئة لاهين عن السماء ، ولو عرفوا الله لأنقذهم وأعانهم ورد إليهم الأمل والقوة والروح .

ويكاد الشعب يسحق براند من شدة الغيظ لولا أن تأتى امرأة من بعيد وهى تصرخ وتستغيث طالبة أن يجد لها العمدة أحد القسس لمهمة دينية عاجلة . . فإذا قال لها العمدة إنه لا يوجد هنا قساوسة ، تقدم براند فذكر أنه الرجل المنشود . . وهنا تضرع إليه المرأة أن يصحبها عبر الخليج لأن أصغر أبنائها يجود بروحه من الجوع والمرض، وتخشى ألا يحضر وفاته قسيس ليباركه وليفتح له أبواب السموات . .

ويطلب براند زورقًا يعبر به الخليج ، ولكن أصحاب الزوارق يحجمون جميعًا . . لأن العاصفة على أشدها ، ومن يركب البحر الآن كالذى يلقى بيده إلى التهلكة . . وهنا يتقدم براند وينزل إلى أحد الزوارق قائلاً للملاحين : إن ربهم يخشى هذه العاصفة ويجفل من ذلك البحر . . أما ربه هو . . فهو معه دائمًا ، أينما كان . . وأنى سار!

ويطلب براند من الملاحين أن يتقدم منهم ملاح واحد . . واحد فقط . . ليعاونه فى عبور الخليج . . لكنهم جميعًا يحجمون . . بل ينصحونه بألا يخاطر بنفسه . . وعند ذلك يدعو براند المرأة التى جاءت تلتمس قسا لينقذ لها روح ولدها . . لكن ! . . واعجبا ! . . إن المرأة تجفل هى الأخرى . . وترفض أن تركب الزورق ! . . إنها ترفض لأن لها أطفالاً آخرين ينتظرونها ! . .

ويكون إينار الفنان هو وزوجته الجميلة ـ الفراشة ـ آجنس ، بين القوم . . وتنظر آجنس إلى زوجها كالتى تستحثه إلى مساعدة براند . . وإينار يقول لها : إن براند رجل صلب المراس قوى العزيمة ذو إرادة لا تنثنى بالفعل . . وهنا تصيح آجنس ببراند، تقول : إن إينار سيذهب معه . .

ولكن إينار لا يلبث أن يشحب وجهه ويطير لونه ، قائلاً : «أنا !! . . »

ثم يرفض إينار كما رفض الآخرون . . وهو يرفض لأنه لا يزال شابًا وفى ميعة الشباب . . إنه لا يجسر ! . .

وهنا تتجهم آجنس . . ويبدو فى وجهها السخط على زوجها ، وتقول له :

« الآن . . يفصل بينى وبينك بحر لا نهاية له . . » .

ثم تهتف الفتاة ببراند : « أيها القس . . أنا آتى معك ! . . » .

ولا يكاد النسوة يسمعنها تقول هذا ورأينها ذاهبة إلى الزورق حتى يهلعن ، ويطلبن لها الرحمة والرعاية من الرب ! . .

وتركب آجنس . . ويسأل براند المرأة عن البيت الذى يحتضر فيه صغيرها فتذكر له أنه هناك . . وراء ذلك الرأس البارز فى الشاطىء الآخر . .

ويدفع براند الزورق فى الموج المصطخب . . وهنا يصيح إينار الفنان بآجنس كالذى يخيفها وينذرها :

« آجنس . . تذكرى أمك ولا ابنة لها ! . . » .

ولكن آجنس تقول له مستهزئة به :

« إينار : تذكر أننا هنا ، ثلاثة فوق الزورق ! . . » .

إنها تقصد أن الله ثالثهما ! . .

ويقف القوم عند الشاطىء ينظرون إلى صراع الرجل والمرأة وسط العاصفة ، والأمواج والرياح والطبيعة كلها ببرقها ورعدها وأسرارها تناوش الزورق من كل مكان . .

ولا يملك بعضهم إلا أن يعجب ببسالة براند وقوة إيمانه . . وإرادته الحديدية الجبارة التى لا تنثنى ! . . ويصيح بعضهم :

« وأخيرًا . . وجدنا لنا قسيسًا . . قسيسًا مثاليًا . . نقيًا طاهرًا ! . . » .

* * *

وبعد أيام نرى هؤلاء المعجبين وقد عبروا الخليج فى يوم هادىء . . واتجهوا إلى حيث نجد براند أمام كوخ المريض وإلى جانبه آجنس . . هو يرسل نجوياته الخصبة الممتلئة بالحكمة . .

إنهم جاءوا يلتمسون من براند أن يكون قسيس كنيستهم التى مضى عليها زمن وهى لا قسيس لها . . ولكن براند يذكرهم بما كان من خوفهم وجبنهم . . ثم هو يعتذر لهم . . لأن هذا ليس من عمله . . إنما عمله أكبر من أن يكون قسيسًا فى أبرشية ! . . إن أبرشيتة هى الدنيا بأسرها . . آذان البشر جميعًا . . إذ : « من ذا الذى يحبس نفسه فى كهف فى حين جنبات المروج تهتز بكل أخضر يانع ؟ . . ومن ذا الذى يحرث الأرض الصخرية اليباب ، فى حين أمامه حقول بور صالحة للحرث ؟ . . ومن ذا الذى يزرع الصخر طالبًا المزيد من الخير فى حين ثمره ناضج فوق شجره ؟ . . ومن ذا الذى يشغل روحه بالتوافه التى تصيبها بالبرد والصدأ فى حين نفسه عامرة بالآمال الدافئة المجنحة » .

ويقول له الرجل : إن عمله الذى قام به كان أفصح من بيانه . . .

يأبى براند أن يكون قسيسًا للقوم . . لأنهم يضنون بأرواحهم حيث يجب ألا يبخل أحد بروحه ! . .

ويتجه براند إلى حيث جلست آجنس فى الزورق تنظر فى ملكوت الأرض والبحر والسماء . . فإذا سألها براند عما تفكر فيه ، قالت : إنها تفكر فى العمل العظيم . . فى الرسالة الهائلة التى يوشك براند أن يقوم بها . .

ثم يفاجأ براند بقدوم والدته نحوه وهى تحث الخطى . . لقد قيل لها : إن ابنها جازف بحياته وسط البحر فى العاصفة فجاءت مسرعة لتطمئن عليه ، وإن لم تره من زمن طويل . .

وتبتهج أم براند إذ تراه بخير ، ثم توصيه بأن يحافظ على حياته ولا يخاطر بها . . فيسألها : « ألهذا فقط أتيت ؟ . . وهل هذه هى النصيحة التى أقبلت تسديها إلىّ ! . . » وتدهش والدته . . وتقول له : إنها قد وهبته الحياة لكى يحافظ عليها . . لا لكى يعرضها للمخاطر فى مثل ذلك اليوم العاصف ، وفى هذا البحر المضطرب . . ثم هو آخر من بقى على الحياة من أبنائها ، وواجبه أن يبقى ليأتى لها بذرية تبقى للأسرة كيانها . . وهى توصية بألا ينسى أنه وارثها . . ثم تقدم إليه بيانًا بميراثها الذى سوف تتركه له . . لكن براند يصارحها بقوله : إنه لم يكن لها معظم حياته ابناً ، كما لم تكن له

معظم تلك الحياة أمّا . وتذهل أمه لهذا الجواب . . لكنها تتمالك . . ثم تقول له : إن هذا لا يهم . . إنما الذى يهمها هو أن يبقى هذا المال للعائلة . .

ويسألها براند : « وماذا لو آل المال إلىّ ، فإذا أنا أبدده وأبعثره ! . . » .

وتسأله أمه : « تبعثر المال الذى انحنى ظهرى ، وابيض شعرى ، فى حمله والحرص عليه ؟ . . من أين لك هذه الأفكار ؟ . . » .

ويحدجها براند بنظرة قاتلة ويقول لها : « من ذكرى قديمة لعلك لم تنسها . . أتذكرين ليلة أن توفى والدى . . وكان وهو مسجى فوق فراش الموت ممسكًا بالكتاب المقدس ، وأضواء الشموع منسكبة فوق وجهه . . ؟ لقد رأيتك إذ أنا طفل صغير تنسرقين فى سكون الليل إلى غرفته ، فاختبأت فى ركن لا ترينى منه . . فرأيتك تنحنين على رأس أبى ، ثم تدسين يدك فى صدره . . ثم تخرجين منه أكياس نقوده . . وكنت تعدين ما فى كل منها كيسا بعد كيس . . والحقد والطمع يشتعلان فى نفسك ، وتقولين كلما فرغت من عد كل كيس : أهذا فقط ؟ . . ثم تدسين يدك ثانية وثالثة ورابعة . . حتى إذا فرغت من هذا كله . . غير مبالية بالأب الميت . . زوجك . . ذهبت لتخبئى المال ؟ . . الذى لم يكن كله مالك ! . . أتذكرين ؟ . .

أمى ! . . أنت أمى ؟ . . لقد حصلت على المال ، لكنك دفعت ثمنًا فادحًا . . لقد خسرتنى أيتها الأم . . لقد بعت نفسك بثمن بخس ! » .

وتقص عليه أمه قصة زواجها من أبيه . . قائلةً إن أباها أرغمها على الزواج من والد براند وهى لا تحبه . . لقد كان رجلاً فانيًا . . لقد كانت حياتها معه حطامًا . . على أنها بحسبها أن ولدت لله قسيسا مقابل خطاياها !

ويسألها براند عما تركت خلفها من ديون وهى فى شيخوخة العمر ، وقبرها على قيد خطوات منها . . ماذا انتوت أن تفعل فى شأنها ؟ . . فإذا قالت أمه : إنها ليست مدينة لأحد بأى دين ، قال لها : إنها مدينة لله . . لقد أتلفت وديعته التى استودعها الله بين جنبيها . . لقد لطخت روحها وهى بضعة من الله ، ودنستها بدنس التراب وشهوة المال . . إنه ينصح لها بأن تسدد دينها بالتخلى عما يغمسها فى الطين . . تنزل عن أموالها لمن

يستحقونها وأن تتوب إلى الله بارئها وهو يعدها إذا فعلت أن يلبى أول كلمة منها حينما يحضرها فيقف إلى جانبها .

وترفض أمه أن تتخلى عن مالها !

وتنصرف والدته لتعود إلى دارها . . إلى مالها . . وينصرف براند نحو آجنس فيتحدثان حديثًا قصيراً حكيماً علوياً ، ثم يفد عليهما إينار ـ الفنان ـ يطالب براند بأن يرد عليه ما سلبه . . فيشير إلى آجنس قائلاً : « ها هى ذى فسلها . . » ويكلم إينار آجنس . . فترفض أن تعود معه « لأن بحرًا عظيماً عميقًا أصبح يفصل بيننا » ثم هى لم تعد تطيق أن تفترق عن أستاذها وصديقها وأخيها . . براند ! . .

وهنا يتقدم منها براند ، وقد عرف معنى ما تقول . . يتقدم إليها ليحذرها مما هى مقدمة عليه . . لأن براند ، ليس حوله إلا المتاعب والمهلكات . . لكن آجنس تطمئنه . . لأن شيئًا فى الدنيا من المهالك لم يعد يخيفها .

ويسألها براند إن كانت تعرف مبدأه . . وبالأحرى . شريعته ؟ . . إن مبدأه هو: الكل . . أو . . لا شىء ! . . إنه الإرادة التى لا تفزع من شىء ولا تنثنى أمام شىء . . الإرادة التى تستهزىء بالموت مهما كان مرّا مؤلماً ! .

وينصحها إينار بأن تترك هذا القس المتعصب المعتوه ، وألا تفضل الظلام على النور . . والأحزان على المسرات . . والموت على الحياة . .

ولا تجيبه آجنس . . لقد اختارت بالفعل . . وها هى ذى تنحاز إلى ناحية براند . .

وتمضى على هذه الأحداث ثلاث سنوات . . ثم نجد أنفسنا أمام حديقة صغيرة أمام بيت الراعى . . القس براند . الذى تزوج آجنس ورزق منها غلامًا هو زينة حياتهما . . والقس جالس فى الحديقة ، ومتجه بنظره نحو الخليج . . نحو هذا الفيورد من الفيوردات النرويجية الذى يفصل بينه وبين والدته . . لقد حدثه قلبه الآن أن حينها قد حان ، وهو ينتظر منها أن تدعوه إليها برسالة لكى يكون بجانبها إذ تجود بروحها . . وهو يقول هذا لآجنس ، فلا تكاد تسمعه حتى تحثه على الذهاب إلى والدته من فوره ،

فإذا اعتذر لها بأشياء لم تقتنع بصحتها ، اتهمته فى لطف بأنه يعنف على الناس أحيانًا ، ويأخذهم بقانونه الصارم ، ويطالبهم بالتجرد التام من كل عيب ، والاستعلاء على كل خطيئة . . وهنا يربد وجه القس ، ويدافع عن نفسه بأن قانونه لا يعنى إلا أن يبرأ الناس من قبول أى دنس فى ذمتهم ، وأن يعفوا عن الإغماض فى الحق وهم على ذلك قادرون ، وألا يقبلوا أنصاف الحلول والتسويات الباطلة التى توقعهم فى نصف الحرام وهم يشعرون بأن نصف حقهم قد ضاع ونصف الباطل قد تحقق وهم عنه راضون . . وقانونه يدعو كذلك إلى إحقاق الحق بالعمل ، وليس بالكلام فحسب ، وإلا كان الكلام نفاقًا ، والحياة مساومة . . وهذا فى رأى براند هو داء الجيل الحديث العضال .

وإذا قالت آجنس : « إن المريضة أمك » . . قال لها : « لكنها ليست إلهى الذى تنصب لعنته على من يسجدون للأصنام التى يصنعونها من المادة . . اسمعى يا آجنس . . إننا إذا أحببنا وجب أن يكون حبنا كحب الله ، وإلا لم يكن حبنا حبّا . . أتذكرين حينما تضرع المسيح إلى الله أن يجنبه كأس الموت ؟ . . هل سمع الله من حبيبه ؟ . . كلا . . لقد شاء أن يتجرع حبيبه تلك الكأس كما يتجرعها الآخرون . . وذلك لحكمة عليا يعرفها ونعرفها جميعاً . . ولم يكن الله قاسيًا ولا متحجر القلب حينئذٍ . . ولا عاجزاً عن تلبية توسلات حبيبه . . إن الحق يجب أن يكون حقّا كاملاً غير منقوص ولا مشوب ، وإلاّ لم يكن حقّا مطلقًا . . ملعونون أولئك الذى يخلطون عملاً صالحًا وعملاً باطلاً فيجمعون بين الحلال والحق ، والحرام والباطل ، وهم يعملون ! . . ما قيمة الطعام الفاخر إذا كان فيه حبة واحدة من السم القاتل ؟ ! . . » .

وهكذا يكبر براند من جديد فى عينى زوجته ، فتلقى بنفسها فى حضنه ، مؤكدةً أنها سوف تتبعه أينما مضى ولو شق بها ثلوج الشمال وهياراته جميعًا .

ويحضر إليهما طبيب صديق ليسأل عنهما ، وليقول إنه آت عبر الخليج من عند والدة براند . . ويعجب الطبيب كيف أن القس الذى يعنى بإصلاح أحوال النفوس والأرواح ينسى نفسه وروحه بعدم زيارة والدته المريضة ! . . ويعجب الطبيب أيضًا من إطاقة آجنس العيش مع هذا القس !

ويشتبك معه براند فى حديث طويل عن الحب والواجب ، فيتركه الطبيب الذى لم يفهمه ، وينصرف .

ويحضر رسول من عند والدة براند يقول له : إنها أرسلتها إليه تطلب إليه الحضور لكى يمنحها السر المقدس وله نصف ما تملك ! . . وقد جاء الرسول على جناح السرعة حتى يعود ببراند إلى أمه المحتضرة . .

ويفاجىء براند رسول والدته بقوله : « اذهب فقل لها إنه لن يحضر إلاّ أن تتنازل عن الثروة كلها ، لأنه وإن يكن ابنها لا يعرف النفاق أو المساومة ولا يتعامل بهما . . سواء مع والدته أو مع الناس . . إن الناس لا يزالون يعبدون عجل الذهب مشقوقًا نصفين . . « ولا تزال لهم : عين فى الجنة . . وعين فى النار ! . . » .

ويدهش الرسول . . وينظر إلى القس براند ويقول : « أيها الرجل . . إن الله نفسه أقل بطشًا وقسوةً منك ! . . » .

وينصرف بما قال براند إلى أمه ! . . لكنه لا يلبث أن يعود ومعه رسول آخر أتى ليقول : إن أمه تعرض تسعة أعشار ما تملك لتنال السر المقدس من ولدها القسيس . . لكن براند لا يجيب بغير ما أجاب المرة الأولى ، على الرغم من محاولة الرسولين إلانة قلبه على أمه المحتضرة . .

فيذهل الرجلان . . وينظران إلى براند . . براند الصخر . . وينصرفان !

وهنا . . تنظر إليه آجنس ثم ترتمى فى ذراعيه ، وهى تقول :

« إنى لأرتعد يا براند حينما أراك أحيانًا وأنت تلتهبُ كالسيف فى يد الله العلى ! . . » .

ولا يمضى غير قليل حتى يحضر العمدة بنفسه . . لقد أتى ليقول لبراند : إن أمه هامة اليوم أو غد . . إنها موشكة أن تسلم آخر أنفاسها . . تاركة لبراند جميع ما تملك ، وإن على براند أن يسارع إلى وضع يده على تلك الثروة الهائلة ، والأملاك الواسعة ، المنتشرة فى كل فج ، لأنه بما عرف عنه مما بلغه من تحنثه ، وترفعه عن قبول شىء من ثروة والدته ، سيخلق المشاكل للعمدة بما يثيره بين الوارثين الجدد والطامعين فى مال والدته

من عداوات وإحن. ويبدى العمدة فى محاوراته مع براند لباقة رجال الدنيا وعالم الأعمال ودهاقين السياسة ، إلا أن براند يكون فى وادٍ ، ويكون العمدة فى وادٍ آخر . . إن براند يظل محلقًا فى عالم المثل العليا . . فى حين العمدة يحاول أن يجعله يأخذ من هذا وذاك . . أن يغضى على قليل من الشر فى سبيل الوصول إلى كثير من الخير . . إنه يحاول أن يجعله يتقبل الدنيا على علاتها وأن يلاين الناس ويحايلهم حتى يدخلوا فيما يدعوهم إليه ، ولكن براند يظل حيث هو . . لا يتزعزع ولا يقترب خطوة مما يدعوه العمدة إليه . . إنه يصارح الرجل بأن الله قد هيأه لكى يوقظ قومه مما هم سادرون فيه من رذائلهم التى تنخر أرواحهم وتقضى على إرادتهم ، وما قادهم إليه زعماؤهم وذوو الحول والطول فيهم من وبال . فإذا سأله العمدة عن الطريقة التى اختارها لإنقاذهم من تلك الرذائل ، قال له براند : بمحاربتها ! . . وهنا يبتسم العمدة ، ويقول له : «أبشر إذن بأنك أول من يخر صريعًا فى تلك الحرب » . . ويرى الرجل أن يلجأ إلى الحزم فى موقفه من براند فيصارحه بأنه من يوم أن ظهر فى الناس بتلك الدعوة وهو مثير فتنة وداعٍ إلى تفرقة ونافخٍ فى نار . . ثم يقترح العمدة أن يدع تلك الديار القليلة بأهلها المحصورة فى أرضها ويذهب إلى الجنوب . . إلى المدن الكبيرة ليجد أناسًا كثيرين يبشر بينهم بأفكاره . . إلاّ أن براند يقول له : إنه لن يبرح هذه القرية . . وإنه لاصق بها حتى ينتصر حقه على باطل غيره . . ويسأله العمدة عما إذا كان معه من يعتمد عليهم فى نصرة هذا الحق ؟ . . ويقول له براند : إن معه كثيرين . . فينظر إليه العمدة قائلاً : «ليكن . . ولكن الكثرة الكاثرة معى . . » .

ويتركه وينصرف .

ويعود الطبيب ليقول لبراند : إن أمه قد لفظت آخر أنفاسها دون أن تتوب . . لفظتها وهى متمسكة بحطام هذه الدنيا ، لم تزد على أن قالت : « إن يد الله كانت أرحم بها وهى تعانى سكرات الموت من يد ابنها ! . . » ؛ وهنا لا يملك براند إلا أن يسقط فى كرسيه وهو يأسف لما يخدع به الناس أنفسهم من رحمة الله بعد حياة كلها خطيئة . .

ويحمى الجدل بين الطبيب وبين براند حول تلك الصرامة التى تقطر بها دعوة القس

فيعود براند إلى تذكيرنا بموقف الله القدير الرحيم من حبيبه المسيح وهو يضرع إليه أن يجنبه كأس الردى . . وأن الله فى عدم استجابته دعاء حبيبه كان أرحم به وبالبشرية منه لو كان استجاب له !

وفيما هما يتناقشان إذا آجنس تخرج مذعورة وهى تدعو الطبيب لعيادة ولدها الصغير آلف Alf الذى أصابه المرض منذ أيام . . إنه الآن يسعل . . وكأنه مشف على الموت . . ويذعر براند . . ويدخل الطبيب مسرعا لعيادة الطفل . . ونرى براند يضرع إلى الله أن يرحم الطفل . . وإن كان مستعداً أن يقبل امتحان الله الذى امتحن به إبراهيم حين أمره بذبح ولده البكر . . ولكن الطبيب يخرج ليشير على براند بضرورة الرحلة إلى الجنوب . . حيث الدفء والشمس . . إذا أراد إنقاذ ولده من براثن الموت .

ونرى الهلع يستولى على نفس براند ، ولا يرى مانعًا من الاستجابة إلى ما أشار به الطبيب ؛ ثم هو يهتف بآجنس أن تلف الطفل وتعنى به . . فقد قرر الرحيل . . وهنا ينظر إليه الطبيب ساخراً مستهزئًا . . لأن براند ـ النبى ـ قد نسى مثله الأعلى بتلك السرعة ، وذلك لأن الأمر هذه المرة ليس متصلاً بوالدته . . لكنه متصل بابنه وفلذة كبده . .

ومع ذلك لا يخزى براند ! . . ويترك الطبيب يمضى ناقما متغيراً ! . .

لكن رجلاً يأتى مسرعًا إلى براند ليقول له : إن العمدة أشاع فى القرية أن براند قد اعتزم الرحيل بعد أن أصبح وارثاً وذا مال . . براند الذى كان يدعى النزاهة ، ويبشر بين الناس بمبادئه العليا ويدعوهم إلى تخليص أرواحهم من أدران المادة ! . .

ويسأل براند : « وماذا إذا كان هذا صحيحاً ؟» .

ولا يكاد الرجل يسمع ذلك حتى يحملق فى براند ذاهلاً ، ثم يقول له :

ـ « إذن لقد كذبت علينا . . أنت الذى طالما دعوتنا إلى تعاليمك ، واعدًا أنك لن تتركنا حتى ينتصر خيرك على شرور الناس ، وأنك لن تستسلم حتى تشتعل نارك فى صدور الناس جميعاً . . كيف؟ . . كيف وقد انتشلتنى من الأعماق . . ورجوت أن

تعلمنى الكتاب وتهدينى إلى الحكمة وتنقذ روحى ؟ . . كيف ؟ . . أرجو ألا أرى كاهنى وهو يهجرنى ويهجر الله . . ويتخلى عنا جميعاً ! . .

ثم يخرج الرجل . . ولا يكاد حتى نرى الفتاة جرد . . تلك التى كانت تطارد الصقر بين الثلوج . . لقد جاءت لتعير القسيس هى الأخرى . . القسيس الذى أراد أن يفر من ميدان كفاحه لأن ابنه مريض . . القسيس الذى يؤثر سلامة ولده على سلامة أرواح الشعب . . القسيس الذى يوشك أن يضحى بمثله العليا . .

وجرد تقول هذا كله . . ولكن فى رموز وكلمات تشبه الأحلام . . أو هذيان النيام . .

وتذهب جرد . . وتجىء آجنس حاملة ابنها لكى تبدأ هى وزوجها الرحلة فراراً من الموت الذى يرفرف على الطفل . . ولكن . .

إن براند يذكر أنه كان قساً . . ونبيّا . . قبل أن يكون أبّا . . إنه يذكر آجنس بأن إبراهيم لم يرفض ما أمره به من الفداء . . وهو لذلك يعرض الأمر على زوجته التى تترك له الأمر . . فيشير إلى باب الدار . . فتدخل المسكينة . . المؤمنة بولدها .

أما براند . . فينظر إليها ويسكب دموعه . . وينتحب ، وينادى :

« ربى . . يا إله السموات . . أنر لى الطريق ! » .

* * *

ويحول الحول . . ويحل عيد الميلاد . . ونرى وقد عاد بأعواد من النبات ليجعل منها شجرة العيد . . وتتلقاها منه آجنس لتهيئها . . ولتضعها على . .

وأسفاه ! . . على قبر ابنها آلف ، الذى كان فى مثل ذلك اليوم من العام الماضى زينة البيت وبهجة العين ومنية الفؤاد !

وتبكى آجنس لهذه الذكرى الحزينة المشجية . . ولكن براند يواسيها . . ويذكرها بأن آلف ليس ميتًا . . إنما حى فى السموات . . فى جوار الله الذى اختاره . .

يقول هذا . . وعيناه مغرورقتان بالدموع مع ذاك !

إنه يذكر لها أن هذا الفداء قربة من الله ، وجعله يراه . . أقرب مما كان يراه من قبل . . ثم هو يراه أبًا رحيمًا . . أكثر مما يراه ربًا قويًا عظيمًا . . وأنه يراه من خلال روح آجنس التى ساقها الله إليه لتكلمه . . ولتنفخ فيه من روحها شجاعةً وإقدامًا . . ولتهديه مرتين . . مرة حينما آثرت عليه حبيبها إينار . . ومرة حينما وقفت زوجة إبراهيم فى محنة الفداء . .

ويضرع إليها براند أن تظل إلى جانبه تعينه وتشد من أزره « لكى تصبح كنيستنا التى يعيرنا الناس بأنها صغيرة وحقيرة أعظم الكنائس وأكبرها » فالطريق وإن كان طويلاً وشاقًا إلا أن الهدف هو أعظم الأهداف وأسماها :

« وهل أنا إلا صوت الله يا آجنس ؟ . . » .

وتنتعش آجنس . . وتعاهده من جديد . . وتوصيه بأن يبنى كنيسته العظمى ، ثم تدخل الدار لأعمال بيتها . ويدعو لها براند بأن يكون الله فى عونها ، وأن يمدها بروح من عنده .

ثم يحضر العمدة فجأة . .

يحضر هذه المرة متخذًا وجهاً جديداً بعد أن رأى أغلبية أهل القرية تنقاد للقس براند . . يحضر لكى يساوم القس على أن يكون فى خدمته وطوع أمره . . ولكن لكى ينتهى هذا كله إلى فائدة العمدة المادية . . إنه يريد أن يسترد سلطانه الضائع وجاهه المفقود ، وذلك بإظهار انصياعه لبراند وخالص ولائه لما يدعو الناس إليه من البرهنة على صدق إيمانهم بالأعمال وليس بالأقوال . . وهو لهذا يساوم القس ويغريه بأن يؤيد دعوة الناس إلى التبرع لبناء ملجأ للفقراء ، ومستشفى للأمراض العفنة وما إلى ذلك من المظاهر التى توهم الناس بأن دعوة براند قد أخذت طريقها العملى . . على أن يكون العمدة هو المشرف على ذلك المشروع كله ، وأن يفرغ براند للدعوة الروحية الخالصة التى تمهد للعمدة طريقه إلى النجاح . . فإذا ذكر القس أن الملاجىء والمستشفيات ليست السبيل إلى هداية الضالين وردهم إلى الجادة ، قال العمدة : لا بأس من إنشاء سجن كبير للعصاة ولمن لا يريد أن يهتدى . . ولكن براند يقول له : إن السجن لا يجدى فى

هذا السبيل شيئًا ، وخير منه أن ينشأ كنيسة كبيرة يكون لها أثرها الفعال فى نفوس المؤمنين بدلاً من كنيسته الصغيرة تلك . . ويجيبه العمدة متعجبًا : وما نفع الكنيسة الكبيرة وهو لم يرد الكنيسة الصغيرة ممتلئة قط بالمصلين؟ . . لكنه يسرع إلى الموافقة على بناء الكنيسة الكبيرة حينما يدرك أن أثرها فى النفوس يكون أقوى . . ومن ثمة يزداد سلطانه على أهل القرية ويزداد خيره تبعًا لذلك . . فإذا سخر منه براند وسأله عما إذا كان قد جاء ليشتريه من أجل هذه المغانم التى يحلم بها . . ولم يضق الرجل ذرعًا . . بل صارحه بأن من حسن السياسة أن تلتقى وجهات النظر المختلفة فى منتصف الطريق ما دام المقصود هو المنفعة العامة . . إلاّ أن براند يزداد سخرية بالرجل ويفضح له مشروعاته ويفهمه أنه يريد أن يبنى نفوسًا ويعمر أرواحًا وليس يريد أن يبنى ملاجىء ومستشفيات ويستولى على ما فى جيوب الناس . . وهنا لا يرى العمدة إلا أن يكشف لهذا القس العنيد الشاب سرّا هائلاً لابد أن يزلزل كيانه ويجعله يلين ويسترخى . . إنه يقول له : إن بالقرية عصابة من المجرمين الأشرار يكادون يكونون للقس إخوة . . «وإنهم مدينون بوجودهم فى هذه الحياة لمن كانت زوجة أبيك . . إلاّ أنهم ذرية لوالد آخر من أم غير أمك (! !) » ثم يسأله هل يستطيع أن يفسر تلك الأحجية ؟ . . إنها أحجية سهلة . . فالناس يروون قصة عجيبة عن غلام صغير فقير ، بل شديد الفقر ، جاء يومًا يتحبب إلى السيدة والدتك التى كانت صبية ذات مال وجمال . . لكنهاأشارت على الفتى المغفل بالذهاب إلى أريحا (فى فلسطين) حيث تزوج هناك إحدى حمائم الشرق التى أنجب منها أطفالاً كثيرين منهم تلك الفتاة المجنونة . . جرد! . . وهكذا كانت تلك المرأة التى كانت زوجة أبيك سببًا فى وجود هؤلاء البله والمجانين والمساكين » . . وهكذا صور الرجل لبراند أباه رجلاً ذا ماض . . كما صور له أمه امرأة ذات مغامرات ! . .

ويتركه وينصرف وهو يقول إنه ذاهب لكى يتجسس على تلك الذرية النجسة والزج بها فى غياهب السجن ! . .

وتظلم الدنيا فى عينى براند . .

ويصيح بزوجته آجنس أن تجيئه بنور . . ضياء !

وتخرج إليه آجنس بشموع عيد الميلاد . . لكنها لا تلبث أن تذكر أن آلف . . ابنها الحبيب المتوفى . . كان فى مثل ذلك اليوم من العام الماضى . . سعيداً بتلك الليلة من عيد الميلاد . . فرحًا فى طفولته السعيدة بتلك الشموع . . فتبكى المرأة الأم . . وتذهب إلى الصوان الذى يضم ملابس الوليد العزيز فتنثر ملابسه . . وتأخذ فى مناجاة كل قطعة منها بعبارات تفتت الأكباد . .

ولكن براند ـ المحزون أيضاً ـ ينبهها إلى أنها تعود فتعبد إلهًا صنمًا . . وأنها تنسى رب السموات الذى خلق جنة لآلف ولغيره من الأطفال الذين توفوا فى سن مثل سنه . . وأنهم يلعبون هناك الآن ويمرحون . . ويحيون عيد الميلاد . .

وتهدأ نفس آجنس . . أو تتظاهر بالهدوء . . وبالتوبة .

ثم تطرق بابها امرأة فقيرة ومعها ابنة صغيرة ترتعد من البرد . . طالبة كساء ، وهنا . . يشير عليها براند أن تهبها ملابس آلف .

وتقسم آجنس الملابس قسمين . . فتعطى المرأة نصفاً . . وتبقى لنفسها من ذكرى آلف نصفاً آخر . . ولكن براند يغضب . . ويقول لها بل لابد من التخلى عن النصف الآخر من الصنم ! . . (الكل . . أو . . لا شىء ! . .) .

ولا تملك آجنس إلا أن تقدم للمرأة ما بقى من ملابس آلف . . ولا تكاد تفعل حتى تشعر بالنور يملأ قلبها . . وبالسماء تتفتح لها أبوابًا . . لقد انتصرت على نفسها وعلى أحزانها . . وآمنت بزوجها !

ويمضى على ذلك كله عام ونصف عام . . ونكون أمام الكنيسة الجديدة التى شادها براند بجوار النهر . . ونرى كاتب الأبرشية منهمكًا فى تعليق ضفائر النبات وأفواف الزهر قبيل شروق الشمس استعداداً للاحتفال بتدشين الكنيسة . . ثم لا نلبث أن نرى ناظر المدرسة يشاركه فى عمله . . كما لا نلبث أن نسمع حواراً طويلا بين هذين الرجلين نعرف منه أن آجنس القديسة قد ماتت . . بعد أن نلبث أن أضناها الحزن على ولدها . . كما نعلم منه أيضاً أن الشعب وبراند قد أصبحا فى جانب ، ورجال الدين وأهل السلطان القديم ومن يلف لفهم من أمثال ناظر المدرسة وأشباهه فى جانب آخر

. . إنهم يسخرون من براند ومن تعاليم براند ويسخطون على أيامه التى امتلأت بالمشاحنات والخصومات . . من أجل . . لا شىء ، أو قل من أجل مواعيد يبذلها براند ، ومن أجل أمانى ضخمة يمنى بها الناس مدعيًا أنه إنما يبنى أرواحهم . . و هى لا تتحقق أبدًا . .

وينقطع الحديث بين الرجلين على نغمة أورجن آتية مع نسيم الصباح من غرفة براند الذى لم ينم ليلة أمس بطولها ، لأنه كان يبكى زوجته وولده . . كما يقول لنا الكاتب ، ويبث أنينه وحزنه للأورجن !

إن الصباح يطلع . . والجماهير تقبل أفواجاً أفواجاً كأنها فى يوم انتخابات عامة لانتخاب إله جديد (!)

ويخرج الناظر . . ويبتعد عنا الكاتب . . ثم لا نلبث أن نرى براند خارجاً من خلوته حزيناً مهموماً . . ضيق النفس ، ممتلىء الصدر بالحرج . . إن موسيقاه كانت صلاة لا يريد ربه أن يتقبلها . . ولا يستمع إليها . . من حنقه على براند! . . فلماذا؟ . . لقد هدم الكنيسة القديمة الصغيرة ، وبنى هذه الكنيسة الجديدة الكبيرة . . فيا ترى ؟ . . هل هذا هو بيت الله الذى كان يحلم به براند ويريده ؟ . . وهل هذا هو المعبد العظيم الضخم الذى كان يصبو إلى إنشائه ؟ . . إن الناس يقبلون من كل صوب وحدب ليحتفلوا برسامة الكنيسة ، والزينات تتألق فى كل مكان . . والجميع ينتظرون نبيهم الجديد . . الذى نقشوا اسمه بالذهب عند باب الكنيسة : « فيا إلهى أمدنى بالنور . . أو اقذف بى فى بطن الثرى ! . . ألا ليتنى مت قبل هذا وذهبت إلى حيث لا يرانى أحد ! » .

ثم يصل العمدة فى أبهى حلة وأفخم زينة ، ووجهه طافح بالبشر فيحيى القس ويسأله إن كان بخير كما يرجو . . ولا سيما بعد أن أنفذا مشروعهما . . ولكن براند يجيبه بأنه يشعر بهم مخامر وضيق شديد . . فيسأله العمدة : وكيف ؟ . . وهذا يوم عيد لا شك فيه ، وعلى القس فيه أن يخطب ويعظ الناس الذين أحبوه وافتتنوا به . .

ويجيبه براند قانطاً متشائماً فيقول : إن ما تم ليس إلاّ إيغالاً فى الخداع والغش ،

وإنهم إنما قلبوا الكذبة القديمة فأظهروها بمظهر جديد . . وقد تكون الكنيسة وجار أرنب لكنها مع ذاك تكون أقوى وأمنع من بناء منيف . . لأن أمرها أمر عقيدة وليس أمر بناء شامخ وأجراس كبيرة ونواقيس مدوية .

ويرد عليه العمدة بأنه لا يدرى سبباً لتشاؤمه هذا ، ولا سيما فى يوم عيد عظيم كهذا اليوم الذى اجتمعت القرية فيه كلها وعلى رأس أهاليها نائب المطران ليشكروا براند على صدق بلائه وخالص جهاده وليقدموا إليه كأساً فضية مكافأة له على ما قام به من ذلك العمل ، وهو لابد أن يبدو منشرح الصدر بسام الثغر مشرق الجبين مبديًا الحفاوة بأضيافه . .

فإذا قال له براند إن الكأس وإن حفاوة الناس ما هما إلا ثمن الكذبة الكبرى ، أجابه العمدة بأنه إذا كان يستقل الكأس الفضية . . فليبشر ! . . لقد عطف عليه الملك وسيمنحه لقب فارس ويهبه نيشان الصليب الأكبر . . لكن براند يقول له وأى صليب الذى ينوء به صدره ؟ . . « إنك يا رجل لم تفهم ما وراء كلماتى بعد ! . . إن العظمة التى أتحدث عنها ليست مما يقاس بالقيراط أو يوزن بالمثقال . . بل العظمة التى تتألق بالنور الباهر مهما حجبتها عن الأبصار . . العظمة التى ترتعد من بردها الفرائص إلا أنها تبعث الحرارة فى الروح . . إنها العظمة التى تتسامى بنا كما تتسامى بنا الليلة الصافية الأديم ذات النجوم المتلألئة . . دعنى . . اغرب عنى . . اذهب فتحدث إلى أمثالك من أهل المادة والمظاهر . . اذهب !

ويتركه ويولى صعداً . . إلى الكنيسة .

ويذهل العمدة الذى لا يستطيع أن يفهم لغز هذا الرجل . . حتى ليحسبه قد تناول مسكراً ؟ ! . . ولكن . . لا بأس . . فسيرسل إليه من يستطيع مناقشته !

ولا يمضى طويل وقت حتى يصل نائب الأسقف ، أو رئيس الشمامسة . . فيشكر براند على ما قام به من بناء تلك الكنيسة الكبيرة الجديدة ذات القيمة العظمى .

ولكن براند يستدرك فيقول للنائب : إنها غير ذات قيمة حتى الآن . . فإذا أبدى النائب دهشته لما يقوله براند وسأله عما يقصد من أنها غير ذات قيمة ، قال له القس :

إن البناء الجديد مهما كان عظيماً لا يمكن أن يهب الناس أرواحاً نظيفة أو قلوباً جديدة . .

ومن هنا يحمى الجدل بين النائب الأسقف وبين القس براند . . إن القس براند يريد أن يجعل كل شىء فى هذه الدنيا خاضعًا للدين الخالص . . كل شىء . . أما النائب فيقول : إن كل شىء يجب أن يكون خاضعًا للدولة . . كل شىء . . حتى الدين نفسه . . وهو يتهم براند بأنه شاب قليل التجربة ، ولم يتمرس بأحوال الدنيا بعد . . وهو يسأله : لماذا ظل الله يعمل ستة أيام ثم لا نذهب إلى الكنيسة إلاّ يومًا واحداً ؟ . . أليس ذلك لأننا لو ذهبنا يوميّا إلى الكنيسة ، وقصرنا حياتنا على أمور الدين لأصبحت الكنيسة وأمور الدين شيئًا عاديّا يمكن ألا تحتفل النفس به أو تلقى إليه بالاً ؟ . . أما العمل ستة أيام وتكريس يوم للدين فيساعد على تخليص النفس من شوائب الدنيا وتركيزها فى الدين واتجاهها إلى الله يومًا كل أسبوع . . « ثم لا تنس يا عزيزى القس أن من خير الدولة أن يصطبغ رعاياها بصبغة واحدة ، ومن واجبك أن تجعل من الجميع نسخًا متشابهة خاضعة لقانون واحد حتى يسهل أن تسوسهم الدولة لما فيه الخير العام، أما أن تتغلغل فى خبايا كل نفس على حدة بحثًا عن حاجياتها فهذه غلطة وقعت فيها دون أن تدرك أخطارها » .

ويسأله براند أن يوضح فيقول النائب : « لقد بنيت كنيسة للصالح العام ، فيجب أن تكتسى هذه الكنيسة مظهرًا خارجيّا هو مظهر السلام والقانونية . . إنى أسألك : ما هو الدين من وجهة نظر الدولة ؟ . . أليس هو القوة التى تصلح لتهذيب رعاياها ويمكن أن تعتمد عليها فى سياستهم؟ . . أليس الدين هو حامى الأخلاق ؟ . . إن المسيحى الصالح يعنى المواطن الصالح . . فهل تظن أن الدولة تبعثر أموالها لمجرد إرضاء الله والناس ، ولكى تجنى المتاعب بعد ذلك من هذا كله ؟ . . كلا يا صديقى . . إن الدولة إن لم تسيطر على رعاياها عن طريق رجالها الرسميين ، كان واجب رجال الدين أن يقوموا عنها بهذا بوعظهم أولئك الرعايا وتعليمهم وتهذيبهم بما يوائم أهداف الدولة . . وأنت إنما أقمت هذه الكنيسة لمنفعة الدولة وخدمتها وتأييدها . . . ولهذا ،

فمنذ هذه اللحظة لابد لنا من الإشراف على كل عمل تقوم به . . ولابد أن تتوخى هذه الروح فى كل أعمالك ! » .

ويقسم براند أنه لم يبن كنيسته لهذا الذى يقوله النائب أبداً . . ويجيبه النائب : أنه سواء بناها لهذا الغرض أو لغرض غيره . . فقد أصبح الغرض من الكنيسة هو ما عينه النائب الآن . . ثم يقول : إنه لا يفهم ما يخيف براند من هذا . . وهو يستطيع أن يخدم كل فرد على حدة ، كما يخدم الدولة إجمالاً . . يجب أن تتوحد خطة رجال الدين جميعًا فيما تكون الخطط واحدة والأهداف واحدة . . خطط الدولة . . وأهداف الدولة . . «ماذا تريد يا رجل ؟ أتريد أن تطاول السماء بكنيستك ؟ . . . أتريد أن تبلغ أسباب السموات ؟» .

ويجيبه براند : « بأن سلم يعقوب قد بلغ السموات بالفعل . . وأن روح الإنسان لا تزال تحن إلى السموات وترقى إليها ! » .

ويهش إليه النائب ويوافقه على ما يقول . . لكنه يذكره أن الإنسان يعيش فى الأرض ، وإن طوفت روحه فى السماء . . والأرض هى التى تعنى الدولة حتى تضمن السماء آخر الأمر . .

ويقول له براند : « إن تشوف الإنسان إلى السماء ليس معناه أن يتمرغ فى أوحال الأرض» . . فيجيبه النائب : « إن من تواضع لله رفعه . . ولابد من أن نحنى السنارة إذا أردناها أن تمسك سمكًا » .

لا فائدة . . إنه جدل عقيم بين رجل لا يرى أن يترك للسماء إلاّ يومًا واحدًا من كل أسبوع ، ثم يفرغ بقية الأسبوع للدنيا . . وبين رجل يريد أن يجعل الأيام كلها لله . . بتزكية الروح والتمسك بالمثل الأعلى ، والاندماج التام فى السماء .

إن نائب الأسقف ينصرف ليعظ الناس . . يعظهم ليصنع منهم قوالب لا يتخلف منهاقالب عن قالب . . ويترك براند لمثله العليا . . شارد اللب ، زائغ العينين . . يبكى آجنس ، زوجته الحبيبة . . المخلوق الوحيد الذى ضحى من أجله ، وكان يقف إلى جانبه يسنده ويشد من أزره .

وإنه لفى ذلك إذا إينار الفنان . . حبيب آجنس القديم يمر قريبًا وهو متشح بالسواد ، شاحب الوجه ، واهى الجسم . . وينادیه براند . . ولكن إينار يبدو واجماً ، كالذى ينطوى على سر ، فيسأله براند : إن كان ينطوى له على ضغن لما حدث بينهما منذ سنين ؟ . . ويجيبه إينار أن : لا . . « فقد كنت يا براند الآلة العمياء التى أرسلها الله على رأسى حينما كنت أهيم على وجهى فى الطريق الأعوج ! . . » .

ويدهش براند من لهجة إينار . . فيجيبه إينار إنها لهجة رجل كان سادرًا فى الغواية والإثم ، ثم استيقظ ليجد نفسه قد تطهر من أوزاره . . رجل غرته قوته ومواهبه التى نصب له الشيطان منها شركًا حتى أدركته رحمة الله الذى يزال يدرك بعين رعايته الغنم الضالة حتى يردها إلى الطريق المستقيم ! . . لقد سقط إينار حينما سلط الله عليه الخمر والميسر ، انتقاماً منه ، فأذهب بهما قوته ومواهبه ، وقضى بهما على روحه ، حتى أصبح لا يرى حيثما وجه عينيه إلاّ ضبابا من الذباب الأسود . . ثم أدركته رحمة الله فأرسل إليه أخوات ثلاثًا انتشلنه من ضلالاته وخلصنه من شرك الإثم ، وسرن به فى طريق الله . . ومن ثمة راح يعظ الناس وينهاهم عن شرب الخمر وارتكاب الموبقات . . وهو الآن أصبح بحمد الله مبشرًا . . وهو مسافر الآن إلى بلاد الزنوج السود الكفرة يدعوهم إلى طريق الله . . وهو لا وقت لديه ليقضيه فى الثرثرة مع القس براند الذى يستوقفه ليسأله : إن كان قد نسى ؟ . . ويقول له إينار : « نسيت ماذا ؟ . . أتعنى تلك الفتاة التى صادتنى فى شراك لحمها قبل أن يعمر قلبى بالإيمان الذى أعدنى لحياة أنقى ؟ . . أرجوك أن تذكر لى كيف حالها ؟ » . .

ويخبره براند أنه تزوجها وأنه قد أنجب منها ولداً لم يلبث أن مات ؛ وهنا يقول له إينار : إن هذا لا يهم ! . . ويجيبه براند : هذا صحيح . . فقد كان الطفل عارية أكثر منه هبة ومنحة . . ولم تلبث أمه أن لحقت به . . وتستطيع أن ترى الخضرة نامية فوق جدثهما من هنا !

ولكن إينار يقول له أيضاً : هذا لا يهم !

فيسأله براند : وهذا أيضاً ؟

فيجيبه إينار : «إننى لا شأن لى بهذا كله . . وإن وددت أن أسأل كيف ماتت؟» . .

ويقول له براند : إنها ذهبت إلى قبرها عامرة النفس بالأمل أن ترى فجراً مجيداً . . إنها لم ترتعد من الموت . . بل ذهبت شاكرة لله ما وهبها من حياة وما عاد فأخذه منها . . أسلمت الروح بإيمان بالله مكين متين لا يتزعزع .

ويسأله إينار إن كانت قد أسلمت وهى لا تؤمن إلا بالله وحده . . فإذا أجابه براند : «أن نعم» تحسر إينار ، ويقول : إنها تعسة بائسة (!) وإنها ضائعة لا محالة . . وأن رب الجحيم إن غفل عن الزج فى جحيمه ببراند من أجل هذا كان ذلك عجباً أى عجب . . براند الذى أصبح علة العلل فى خراب القرية .

ويسأله براند : « وكيف يزعم ذلك رجل كان يتمرغ فى أوحال الخطيئة منذ قريب؟» . .

ويجيبه إينار : « أما عن نفسى فقد تطهرت فى نبع الإيمان حتى لم تبق بى أثارة واحدة من دنس . . ولقد تجردت من ثياب الآدمية ، حتى صرت ناصعًا شديد البياض . أما أنت ! . . فلشد ما تفوح منك رائحة الكبريت . . وتبرز من جبينك قرون الشيطان! . . إننى الآن سنبلة مختارة . . أما أنت ! . . فويلك ، إنك حصب جهنم! . . » . . ويذهب إينار . .

ويكاد براند يذهل من نفسه ! . . إنه ينظر حوله فلا يجد له فى الدنيا كلها حبيبًا ولا نصيرًا . . حتى هذا الرجل الذى أخذ يميل إليه ويكن له التجلة والاحترام . . إنه يلعنه هو الآخر ! . . « والآن . . فلأحمل علمى ليرفرف فوق رأسى وحدى . . وإن لم يعد فى الدنيا من يطيعنى ولا يضمر لى ذرة من محبة ! . . » .

مسكين براند ! . . لقد ماتت آجنس بعد أن مات ابنه . . وأخذ من بيدهم السلطان يتحدونه خوفًا على سلطانهم . . وقد استطاع العمدة أن يورطه فى بناء مشروعه . . وها هو ذا نائب الأسقف يهدده ويسخر بمثله العليا . . وها هو ذا الشعب يجتمع للاحتفال بهذا المشروع الذى لم يقصد به وجه الله . . والذى يريد رجال الدين أن يكون

لعبة فى يد رجال السلطان يضحكون به على ذقون الشعب . . وها هو ذا إينار ابن الخطيئة يصبح قسّا ويذهب ليمشى فى الأرض لدعوة الضالين إلى طريق الله . . ثم يسخر ببراند ويقول : إن الأولى به أن ينقذف فى نار جهنم هو وآراؤه ومثله العليا .

ولكن الذى يحز الآن فى قلب براند هو أنه قبل هذا المشروع الذى أغراه به العمدة ، وهو بقبوله إياه قد هدم مثله الأعلى . . لقد قبل المساومة ورضى أن يشارك فى الدنس ونسى ما كان يدعو إليه من بناء الأرواح وحدها . . لا بناء الكنائس والضحك على ذقون الناس بالمظاهر الخادعة . .

وها هو ذا السيد العمدة يسرع إليه ليدعوه كى يشارك فى الموكب الذى يوشك أن يبدأ المسير . . وهو يسمع الجماهير بالفعل تهتف باسم القس . . لكن براند الذى أفاق من غلطته ، وتنبه إلى ما تردى فيه ، يفاجئه بأنه باق حيث هو ، وأنه لم يعد يطيق أن يدس رأسه فى الرمال التى يقود العمدة إلى باطنها أغنامه . . ولأن طريق العمدة لا يتسع لبراند

غير أن زحام الجماهير يشتد ويكاد نظامها أن ينتقض ، ويطلب نائب الأسقف من العمدة أن يأمر الجماهير بالمحافظة على النظام ، بيد أن العمدة يقول : إنهم لم يعودوا يسمعون له كلمة أو يطيعون له رأيًا . .

ويتقدم ناظر المدرسة إلى براند ليرجوه بأن يلقى كلمة فى الجماهير التى توشك أن يفلت زمامها وينتقض غزلها ، لكن براند لا يزيد على أن يقول بمسمع من رجال السلطة والموظفين الرسميين : « إن الجماهير قد أخذت تستيقظ من الغشية المستولية عليهم » . . ثم يتوجه بالحديث إلى من حوله قائلاً : أيها القوم : « إنكم فى مفرق الطرق . . فعليكم أن تطرحوا ماضيكم الميت المتعفن بأجمعه وإلا كان باطلا هذا البيت الذى أقمتموه باسم الله : مهما كان عظيماً رفيع الذرى » .

ويقول الموظفون الرسميون : إن القس يهذى . ويقول رجال الدين : إنه جن . . وينظر إليهم براند ليقول لهم : « أجل . . لقد كنت مجنوناً أهذى حينما حسبت أنكم لا تزالون تخدمون بصورة ما الروح والحق . . وحينما كنت أحلم بأننى استطعت

أن أجعلكم عباده حقّا وصدقًا . . ولكن حينما أردت أن أجعل بيتًا من الحجر يتسع لكم جميعًا . مستصغراً كنيستى القديمة المتواضعة، فرحت أساومكم وألتقى بكم فى نصف الطريق لأوفق بين مثلى العليا وبين أطماعكم ، كانت غلطتى أكبر الغلطات وأشنعها؛ لأنى نسيت أن التوفيق بين الحق والباطل هو سيد الأكاذيب ورأس الرذائل . . أتستطيعون أن تخبرونى ما هو هذا الذى يجذبكم ويخدعكم هذا اليوم وفى مناسبتكم تلك ؟ . إنه هذا الموكب وذاك الغناء . . تلك الموسيقات وزينتها . . إنها الخطب الطنانة التى تلهب نفوسكم وتخلب أسماعكم . . إنها الشموع والبهارج المقدسة . . إنها المظاهر . . الزيف . . حتى إذا عدتم إلى كدحكم وأعمالكم اليومية . . إلى ظلماتكم وأوهامكم . . غاض الدين وتوارى الله . . ولكن . . لا . . إنما العيب فىَّ وفيكم . . بل . . إنه فى هؤلاء جميعًا . . أرونى إن استطعتم روحا صادقة فيكم! . . لقد خسرتم أنفسكم وعصفت بكم شهواتكم حتى صدئت قلوبكم . . إنكم لا تذكرون الله ولا تنيبون إليه إلاّ حينما تغصون برذائلكم ، وتدبر أعماركم ، وتصبحون لا خير فيكم . . وكان خيرا لكم أن تذكروه فى جميع أعمالكم ، وكأنكم ترونه ويراكم . . وأن تتخذوا من الكون كله كنيسة لكم فى طفولتكم وشبابكم وشيخوختكم . . » .

ويضطرب رجال الدين ورجال السلطان . . ويخطبُ القوم نائب الأسقف فينصحهم ألاّ يسمعوا إلى براند ، بحجة أنه يضللهم ويريد أن يدمر عليهم حياتهم . . ولكن . . من . . إن الجماهير مفتونة براعيهم . . بقسيسهم الصالح الذى لا يقول إلا حقّا . . وهم لا يزدادون إلا هياجا . .

ويواجه براند حشود الجماهير ، فيطلب إليهم أن ينصرفوا عن ذاك البناء الذى لا يأوى الله إليه . . لأنه بناء خانق . . قاتل لحرية الروح وانطلاق القلب . . ثم يتقدم فيغلق باب الكنيسة ويأخذ بمفاتيحها فى يديه ، ثم يقذف بها فى أعماق النهر ، قائلاً : إنه لن يكون قسيسًا لهذا المعبد ، وإنه يستعيد الآن ما أعطى . . وعلى الشبيبة أنقياء القلوب . . الأطهار الأبرار . . أن يتبعوه إلى النصر . . إلى حيث يتغلبون يومًا على عوج أنفسهم ودَخلها . . إلى حيث لا يخلطون عملاً صالحًا بعمل غير صالح . . إلى حيث لا يغمضون على القذى ولا يساومون على الحق . . » .

ويحاول العمدة أن يوقف سيل الشعب ليقرأ عليهم قانونًا بمنع التجهر ، ولكن براند يهزأ به قائلاً : إنه مرتحل مع شعبه الحبيب من هنا . . إلى حيث الحرية ، ليخلصه من كل ما نصب الوصوليون له من شراك الإثم .

وهنا يحيط الشعب ببراند . . حتى الكاتب وناظر المدرسة . . ويحملونه على أكتافهم وهم يهتفون له ويلهجون باسمه .

وينظر إليهم السيد العمدة ، ثم لا يلبث أن يهتف بهم قائلاً :

ويلكم أيها العميان . . إلى أين ؟ . . قفوا ! . . إنه كان يتكلم إليكم بلسان الشيطان كى يضلكم ويوقعكم فى شراكه !

أما نائب الأسقف فيقول لهم : فكروا فى بيوتكم وأوطانكم !

وتجيبه الجماهير قائلة : إننا منطلقون نحو بيت أكبر من بيوتنا !

ويعود العمدة فيقول لهم : فكروا فى أراضيكم وحقولكم . . فى أغنامكم وأبقاركم ! . .

ويقول لهم النائب : نساؤكم يصرخن ويصوتن . . قفوا . . إن أطفالكم يبكون ويستعبرون . . وآباؤكم . . لمن تتركون آباءكم ؟

لكن الجماهير المتحمسة لا تزيد على أن تقول : إذن . . فهم ليسوا لنا بأهل ! . .

وينطلق القوم وراء براند . . وينظر إليهم نائب الأسقف مبهوتًا محزونًا . . فى حين ينظر العمدة إلى صاحبه يطمئنه . . قائلا له : إنهم هم المنتصرون آخر الأمر . . ولن ينال براند غير الخزى والخسران . . فهو أعرف بهؤلاء الغنم . . غنمه بالطبع . .

وينطلق العمدة وراء القوم . . ولا يلبث النائب أن يتبعهم كذلك !

* * *

ويذهب براند ، ومن ورائه الجماهير ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، يتسلقون الجبال المحدقة بالوادى ، والتى تليها أراض واسعة ممتدة لا يبلغ الطرف مداها ، والأمطار تنسكب من كل ناحية . .

وبراند يستحث القوم ليصعدوا أكثر وأكثر . . حتى يبدأ التعب ينهك الكثيرين ، وحتى يبدأ بعضٌ منهم يشكو الظمأ . . وبعضهم الآخر يشكو الجوع . . وآخرون يقولون : إن أبناءهم مرضى . . وهناك من يسأل : إلى أين ينتهى المطاف ؟ ويقف السعى . . وبراند ماضٍ فى طريقه مع ذاك . . وغيرهم يطلب إليه أن يصنع خارقة أو يبدى معجزة . . لكنه يقول : إن الله وحده هو الذى يجزى كلا عن تعبه . . ولابد من المعركة قبل أن يفوز المحاربون بالأسلاب . . وناظر المدرسة والكاتب يبثون فى الناس السخط لأنهما يائسان قانطان من أن يكون لبراند أى هدف إلا ما يقوله : إنهم سيظلون ماضين حتى ينتصروا على أنفسهم . . على الضعف والاستخذاء والشك . . ويسأله بعضهم : إنه قد وعدهم النصر ، فلماذا تعكس النصر فتجعله تضحية بنا وقربانا؟ . . ويجيبه براند : إنه يريد أن يجعل من الصابرين وأولى العزيمة منهم فرسانًا لله حقّا . .

ولا يفهم الناس ماذا يريد براند . . وإن فهم معظمهم أنه ماضٍ بهم إلى حتفهم . . وفجأة تنطلق أصوات بقتله ! . . هذا المجنون المأفون !

وتصيح بعض النسوة : « نائب الأسقف . . نائب الأسقف ! » .

ويصل نائب الأسقف فيهتف بالقوم قائلاً : « يا أطفالى المحبوبين . . يا قطيع غنمى . . . إنكم لن تضلوا عن راعيكم أكثر مما ضللتم . كيف أمكنكم أن تجرحوا قلبى وتملأوا نفسى بالحزن ، حتى سكبت من أجلكم كل تلك الدموع ! . . خليقٌ بكم ألا تسمعوا لهذا الرجل الذى أضلكم وأغواكم بوعوده وكواذب أمانيه . . ما عليكم إلا أن تنظروا فى قلوبكم لتدركوا أنه سحركم . . إلى أين يمضى بكم هذا المعتوه الأبله ؟ . . أإلى أعمال عظيمة أنتدبكم لها ؟ . . إن لكم أعمالكم اليومية التى يجب أن تقوموا بها . . أما ما وراء ذلك فلستم منه فى شىء ؟ . . لماذا جئتم إلى هنا؟ . . لتقضوا على الذئاب والثعالب والنسور والصقور ؟ . . أتتركون مزارعكم لتحاربوا رعود الجبال وبروقها ؟ . . أهذا هو الذى يدعوكم إليه ذلك المجنون ؟ . . توبوا إلى بارئكم الذى لا يزال يقبل التوبة من عباده وارجعوا إلى أولادكم وأعمالكم . . » .

والعجيب أن ناظر المدرسة يتدخل هنا فجأة وبلا داعٍ ، فيقول : « لقد فتح القس

(براند) أعين الناس وأراهم عيوبكم وأكاذيبكم . . ولم يعودوا فى غفلة بعد ، والحياة التى كانوا يرضونها قبل يومنا هذا كانت حياة بلا حياة ! » .

ويقول نائب الأسقف : « صدقنى إن هذا أمر مضى وانتهى ، وما عليكم إلا أن تتركوه وتنحازوا عن ثورته تلك قليلاً حتى تصبح الأمور على ما يرضيكم ، وأنا أضمن لكم هذا . . » .

وهنا يهتف براند بالجماهير قائلاً : « إذن فاختاروا أيها الناس رجالاً ونساءً . . اختاروا لأنفسكم بين الله . . وما يدعوكم إليه هذا الرجل . . ولا تنسوا أنكم إذا انصعتم إليه خسرتم أنفسكم وأرواحكم ! . . » .

وتهتف بعض النسوة قائلات : « نختار العودة إلى بيوتنا ! . . » .

وهنا يسارع العمدة فيقول : « وأبشركم أن أسراباً من السمك لم نكن نحلم بها قد دخلت من البحر إلى الخليج وهى فى انتظاركم . . فدعوا هذا العبث الذى ليس وراءه طائل ، والذى يدعوكم إليه ذلك الرجل . . وهلموا إلى ما يجدى من صيد ذلك السمك . . ولا تنسوا أن سوقه رائجة الآن . وأثمانه مرتفعة . . ثم هو لا يلزمكم بأى تضحية أو قربان مما يدعوكم إليه براند ! . . هيا هيا ! . . » .

ويشد نائب الأسقف على يد العمدة مؤيداً مؤازراً . .

ويبدأ الوهن يتسرب إلى نفوس القوم . . حتى الكاتب وحتى ناظر المدرسة ، إذ يسأل الكاتب فيقول : « وهل أعود إلى وظيفتى إذا رجعنا ؟ . . » ويتلوه الناظر متسائلاً : « وهل أظل ناظراً !؟ . . » .

ويبادر نائب الأسقف إلى طمأنتهما بأنهما إذا عاوناه فى تهدئة الجماهير فسيعاملهما بمنتهى الكرم والمجاملة .

وعند ذلك يهتف الكاتب بالجماهير قائلاً : « إذن . . فهلموا إلى زوارقكم يا قوم . . هلموا . . ودعوا القسيس لجنونه » .

ويتبعه الناظر فيقول : « اتركوه كما تركه الله وتخلى عنه ! » .

ويبادر العمدة فيقول : « أجل . . هذا الذى ملأ أدمغتكم بالقصص والأحلام والهراء الفارغ ! . . » .

ويتتابع الناس فيؤيدون ما قال العمدة ونائب الأسقف والكاتب وناظر المدرسة ، ويسفهون ما قادهم إليه براند مما لا يعرفون سره ولا يفقهون جوهره . . ويبتهج العمدة ونائب الأسقف . . ويندفع الناظر فى الملق إليهما بالطعن فى براند ، وفيما خدع الناس من أكاذيبه .

ويرثى نائب الأسقف لما انتهى إليه حال براند وانصراف الجماهير عنه . . إلاّ مخلوقة واحدة ظهرت من البرية الثلجية لتنحاز إليه ! . . من هى يا ترى ! . . آه ! . . إن العمدة هو الذى يتبينها ويعرف من هى ! . . إنها جرد !

ويقول وهو يتشفى : « حمداً لله الذى لم يدع له من أنصاره إلا مجنونة ! . . أكاد أجزم بأن الناس إذا فكروا لم يفكروا إلا فيما وراء الطبيعة ! . . فى الغيب الذى يفتنهم ! » .

لكن نائب الأسقف لا يرضيه هذا الكلام ، فيقول للعمدة : « بل تعال . . واصمت . . ! vox populi vox Dei » . . يريد أن يقول له : لا تقل هذا . . فصوت الشعب هو صوت الله (! ! . .) .

ويبقى براند وحده بعد تخاذل الناس عنه . . يبقى وحده فى برية جبلية من الثلوج والجليد والعواصف . . ونراه محطوماً دامياً ينعى مثله العليا . . ويبكى آماله التى تبددت وراحت تتخايل له كأنها لمع من الضوء الباهت فى ظلمات الماضى . . ونسمعه وهو ينعى على هذا الجيل الضعيف الذى نسى روح المسيحية . . ينعى عليه ما طمست المادة والدجل على عيونه . . ورضاه بأن تنحنى روحه كما ينحنى ظهره . . نسوا ما لقيه السيد المسيح على أيدى أعدائه وأعدائهم من أجلهم هم ! . . السيد المسيح الذى لم تنخذل له إرادة ولا رضى بالتسليم ، والذى لم يساوم فى رسالته وإن ألبسوه تاج الشوك ، وعذبوه بإبر العوسج . . ففى سبيل من كان هذا العذاب؟ . . ولمن كانت تلك الصيحة ؟ . . ومن غيرنا كان يجب أن يقتدى بالمخلص ؟ . .

ويغفو براند لحظة وهو جالس فوق إحدى الصخور . . لكنه يهب فجأة على صوت

موسيقى يصافح خياله من بعد . . فإذا هى موسيقى إنشاد تختلط بعصف الزوبعة وتضرب فى صرخات الريح .

إن براند يهتف باسمى زوجته آجنس ، وولده آلف ، مناجيًا مناديًا شاكيًا . . لكنه لا يسمع إلاّ صوت الموسيقى المختلطة بصرخات الريح وكأنها تقول له :

أيها الحالم . . لا تنس أنك من تراب ! . .

وأنك قد خلقت للحياة الأرضية .

وهنا ينفجر براند باكياً ، ثم إذا هو يدعو إليه آجنس وآلف ليؤنساه فى وحدته ويدركاه فى وحشته ، وليخففا عنه لذع العاصفة .

رباه ! . . هل استجابت السماء لهذا المتهالك المسكين ! . . إننا نرى طيف آجنس يبرز من الضباب وقد تسربلت بثياب من ضوء ، واتشحت بلفاع فوق كتفيها ، ثم أقبلت وهى تبتسم ، مادةً إلى براند ذراعيها قائلةً له :

براند . . انظر . . هأنذى زوجتك مرة أخرى !

وينتفض براند ويهتف بها :

آجنس . . ناشدتك الله أن تكونى ما تبدين !

وتقول له :

لقد كان هذا كله حلماً محموماً ! . . والآن انقشع الضباب وزال ! .

ويندفع براند نحوها ، فتقول له صارخة :

لا تقترب منى . . انظر أمامك فالنهر الجبلى الثائر يفصل بيننا وهو عميق بعيد الغور . . كلا . . كلا . . إنك لم تعد فى نوم ولا حلم . . والأمور هى كما تراها . . ولم تكن أنت إلا مريضًا يا عزيزى . . وبحران الحمى وحده هو الذى جعلك تتخيل أن زوجتك قد غابت عنك .

ويسألها متلهفًا :

فأنت حية إذن ! . . أحمدك يا رب ! . .

وتجيبه مبادرة :

صه . . حسبك . . حسبك . . هلم فقد آن أن نذهب .

ويقول لها :

ولكن . . آلف . . أين آلف ؟ !

فتقول له :

إنه لم يمت !

فيسألها :

أهو حى إذن ؟

فتجيبه :

وقوى مورد الخدين . . لقد حلمت جميع أحزانك

وتصنعت النضال ، وتصنعت السقوط . . إن ابنك

مقيم مع أمك . . كبيراً نامياً وممتلئاً حبوراً . .

والكنيسة قائمة كما هى . .

فاهدمها إذا أردت . .

والقرية ماضية فى طريقها وتصنع ما تريد . .

وأهها يكدحون كما كانوا فى الأيام السعيدة الماضية !

ويسألها براند معجبًا :

الأيام السعيدة ؟

obeikandl.com

فتقول له :

أيام أن كان السلام يرفرف على هذه الأصقاع .

فيسألها :

السلام ؟

فتقول :

ولكن ، البدار البدار . . تعال معى !

ويقول :

إننى أحلم !

وتقول له :

كلا . . لم تعد تحلم الآن . . هيا . . إن الحرارة
والعناية سوف يجعلانك أقوى وأشد عوداً .
وإن كانت الأحلام لا تزال تتعقبك . . والضباب يغشى
تفكيرك . . فحاول أن تجرب الدواء . .

فإذا طلب منها أن تعطيه الدواء قالت :

إنك أنت نفسك الرجل . . فاستعمل الدواء الذى لا يستطيعه غـيرك . .

فإذا سألها عن اسم الدواء على الأقل قالت :

إنه استئصال الأكاذيب والضلالات من ذاكرتك . . لأنها هى التى أصابتك بذلك المرض المضنى . . هيا . . انسها . . وانزع الضباب عن روحك .

وتذكر كلماتك الثلاث !

فإذا سألها ما هى ، قالت :

الكل . . أو لا شىء ! . .

ثم تطلب إليه آجنس . . أو يطلب إليه طيفها ، أن يترفق بها ، وأن يأخذها فى ذراعيه القويتين . . وليطيرا فى إثر الصيف !

ثم تحذره من أن يعود إليه المرض ، فيؤكد لها أنه قذف به دبر ظهره ولن يعود إليه أبداً . . لأن الأحلام لم تعد لها دولة قائمة ، ولأن الذى يزعجه الآن هو . . الحياة ! . .

ويطلب إلى آجنس أن تصحبه عسى أن يعيش ما كان يحلم به ، وعسى أن يجعل ما لم يكن إلا مظهرا ووهماً حقيقة واقعة .

وتقول له آجنس إن هذا هو ما لا يمكن تحقيقه أبداً . . وما عليه إلا أن ينظر أمامه ليرى الطريق الذى انتهى به إلى هنا . . إنها تنصحه بأن يكتفى بالنظر إلى ثمرات الحياة دون أن يقطفها . . فقد طرد الإنسان من الفردوس حينما قطفها ! . .

* * *

وفجأة يتوارى طيف آجنس . . ولا يسمع فى الضباب الذى كان يلفها إلا تلك الصيحة : « مت ! . . إذ لا نفع لك فى الحياة ! » .

وتلف براند ضبابة من الذهول . . ويبدو كالذى استيقظ من حلم ، قائلاً : إن ما كان فيه ليس هو إلا محاولة لإثنائه عن مثله الأعلى . . إنه هو المساومة وضعف العزيمة . . الوسواس ! . .

لكنه لا يلبث أن يرى جرد مقبلة نحوه حاملة بندقية ، وهى تقول : « هل رأيت الصقر ؟ . . » ويجيبها إنه قد رآه رأى العين مرة واحدة ! . . » وتسأله : « وأين مضى ؟ . . » فيجيبها : « إلى حيث لا يمكن أن يصيبه أى سلاح ؛ لكنك إذا أمكنك أن تقتليه وجدته من خلفك . . جريئًا كعهده . . يتغفلك كعادته ! . . » . وتقول له : إنها قد سرقت تلك البندقية التى تقنص بها الغزلان وأبقار الثلوج لتقتله بها ، وإنها قد حشتها بالفضة . . لأنها ليست مجنونة كما يدعون .

ويريد براند أن يتركها وينصرف . . لكنها تلاحظ أنه يعرج ، فإذا سألته عن سبب ذلك ، قال لها : إن الناس قد قذفوه بالحجارة فعطبوا رجله ، كما عطبوا جسمه وأصابوه بجراح كثيرة ، وتسأله : أين مضى صوته الموسيقى الساحر المدوى الذى كان ينهى ويأمر ويعظ ويزجر ؟ . . فيقول : إن الجميع خدعوه وخانوه وأنحوا عليه باللائمة . وهنا تحملق فيه جرد مبهوتة ، وتقول :

«أيها الرجل . . أخيراً . . عرفتك . . لقد كنت أحسبك

« طاعوناً يجثم على الناس وعلى الآخرين . . ألا ما

« أجل شأنك يا أعظم من يمشى على رجلين ! . . » .

وتتناول يده ثم تنظر فيه وفى جبينه ، وتقول : إن يديه مثقوبتان بالمسامير ، وإن رأسه وجبينه يقطران قطرات حمراء من أثر تاج الشوك . . كالذى حملوه على الصليب تماماً . .

لقد كان أبى يقول : « إن هذا حدث بعيد عن هنا . . ومن زمن قديم . . لكن أبى كان يكذب على . . لأنك أنت هو . . هو هذا الذى صلب ! » .

ولا ينخدع براند بهذا الثناء ، فيقول : إنه مفتقر إلى ثمامة من نجاة .

ثم تتنبه جرد إلى أنه واقف عند شفا الهاوية ، وفى مكان خطر ، بل شديد الخطورة . . وينظر براند إلى الأعالى . . ويقول : إنه أمام كنيسة الثلج . . وإنه مشوق إلى النور . . إلى الشمس . . إلى الرحمة . . إلى السلام الإلهى . . لا إلى الكفاح والخصام ! . .

وينفجر براند باكيًا . . ويهتف باسم المسيح الذى طالما ذكر اسمه ، ولم يأخذه المسيح قط إلى صدره ! . . إنه يبتهل إليه داعياً شاكياً . . منيباً . .

وتدهش جرد وتسأله : « لماذا لم تبك هكذا أيها القديس منذ زمان بعيد ؟ » . .

ويجيبها وقد عاد إليه هدوؤه ورجعت إليه طمأنينته !

« لأننى اليوم فقط أستطيع أن أبكى . وأركع . . وأصلى ! . . » .

ثم يركع براند ، وينظر إلى قمةالجبل ويقول بصوت منخفض (!) :

« ها هو ذا يجلس ثمة ـ يا له من منظر فظيع ! . .

« انظرى . . ها هو ذا طيفه يرف حيث يضرب

« بجناحيه جوانب الجبل . . الآن حانت ساعة

« النجاة إذا قدر للرصاصة الفضية أن تصيبه ! . . » .

وترفع جرد بندقيتها وتصوبها إلى قمة الجبل . . ثم تطلق . . وتقول (!) :

« انظر . . لقد قضيت عليه قضاءً مبرمًا . .

« وها هو ذا قد انتثر ريشه ريشة وراء أخرى » .

وينظر إليها براند ويقول :

« أجل . . إن كل ابن أثيمَ لا بد أن

« يواجه الموت جزاء آثامه ! . . » .

وهنا يدوى فى الآفاق صوت شديد ، فتفزع جرد ، وتلقى بنفسها فى هوة الجليد وهى تصرخ وتصوت . .

وينظر براند إلى هيار الجليد الساقط من الأعالى فوقه فيجثم ، ثم يسأل الله عما إذا كانت إرادة الإنسان التى لم تنثن ولم تلن قط يمكن أن تعود على صاحبها ببعض ما ينجيه ؟

لكن الهيار يسقط فوقه فيجرفه . . ويسمع وهو يجود بروحه صوتًا يدوى فى الجبال قائلاً :

إن الله هو المحبة ! . .

* * *

تعليق على هذه المسرحية :

وبعد . . فقد اختلفت الآراء فى هذه المسرحية الرمزية أشد الاختلاف ، وذهب

obeikandi.com

كثيرون إلى أن أحدًا لم يفهمها إلى اليوم . . وأقصى ما استطاعوا أن يفهموه فى تأويلها هو أن إبسن كان يسخر فيها من رجال الدين . . المتشددين منهم فى أمور دينهم والمتساهلين . . ومن يتخذون دينهم ذريعة لدنياهم ، وأنه كان ناقمًا على مواطنيه الذين خذلوا جارتهم وشقيقتهم الدانمركية ، فتركوها نهبًا للجيوش الألمانية ولم يخفوا لمساعدتها وتأييدها . . وهو يعزو ذلك الموقف الخبيث إلى انهيار أخلاق النورويجيين فى تلك الفترة فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، ورخاوة نفوسهم . . ومن ثمة نظم مسرحيتيه الرمزيتين : براند ، وبيرجنت . . فصور فى الأولى نفسية رجل متزمت متشدد فى أمور دينه . . ولكن فيما لا يغنى . . رجل يعيش فى عالم الفكر والفلسفة والشطح الذى لا يجدى . . رجل مستمسك بمثل خيالى واهٍ لا أساس له . . يقول فرانك وادلى شاندلر[1] : « إنه هنا التصور المسيحى لإنكار الذات وللتضحية . . فالقوم الذين آمنوا بالمثل الأعلى الذى أخذهم به براند يفشلون فى المحافظة عليه حين يجد الجد ويحزبهم الخطر . . ومن ثمّ تصبح معتقداتهم مجرد عادات مكررة يؤولونها بحسب ظروفهم . . فى حين أن قسهم براند مخلص لعقيدته لا يسترخى فيها ولا يلين مهما لقى من مخاطر . . فهو يستجيب لما دعاه روحه الفدائى المسيحى إليه ، فيركب البحر العاصف لكى يسمع اعتراف مسيحية تجود بروحها . . ولا يقبل أن يصنع هذا مع أمه حينما أدركها الموت لاعتقاده أنها كانت أمّاً ذات ماض وذات أوزار ، إلا أنها تتوب وتتنازل عن أموالها التى استولت عليها بغير الحق . . وحينما يرى الطبيب ألا شفاء لابنه إلا أن ينأى به إلى حيث الدفء نراه يأبى أن يتخلى عن مريديه ويؤثر مبدأه على حياة ولده . . فيموت الولد ، وتموت زوجته من شدة حزنها عليه . . زوجته التى تخلت عن حبيبها الفنان حينما آمنت بدعوة براند . . ثم تزوجت براند . . ثم هو ينشىء كنيسة كبيرة للعبادة وفقًا لمذهبه ، لكنه يهجرها حينما يرى أن الناس يحبون بناءها ويخدعون بمظهرها ، دون أن يحفلوا بربها . . ثم . . إلى أين كان براند ذاهبًا بمريدية ؟ . . إلى أين ؟ . . أليس هؤلاء المريدون كانوا على حق فى التخلى عنه؟ . . بل رجمه آخر الأمر ؟ » .

---

(١) فى كتابه Aspects of Modern Drama .

هذا هو الهدف الرمزى للمسرحية فى مجموعه . . عدا ما فى المسرحية من مئات الرموز الجميلة العجيبة التى يفسرها كل منا تفسيراً مختلفًا عجيبًا . . وهى بعد رموز قد تحتمل الكثير من تفاسيرنا . . وقد لا تحتمل . . فبراند نفسه رمز . . والفتاة جرد رمز ، وآجنس رمز ، وإينار الفنان رمز ، وناظر المدرسة والكاتب والعمدة ونائب الأسقف والشعب نفسه : كل هؤلاء رموز . . بل الكنيسة الصغيرة والكنيسة الكبيرة . . بل الخليج النورويجى (الفيورد) . . بل الصقر الذى كانت تترصده جرد . . كل شىء . . . كل شىء !

أما بيرجنت ، فقد صور لنا فيها شخصية أخرى ، هى نقيض براند على خط مستقيم . . إنها شخصية شخص لا خلق له ولا مثل أعلى يستمسك به ويحتذيه . . فتى مساوم يعيش فى أحلام مادية هابطة غير الأحلام التى كانت تأخذ بزمام براند . . فتى بهيم يجرى وراء أهوائه ويعبد لذاته دون أن يقيم اعتباراً لخلق أو مبدأ أو دين ، وما عليك إلا أن تقرأ الخلاصة التالية لتعرف من وما هو :

* * *

بيرجنت :

كان بيرجنت شابّا نرويجيّا مزارعاً قويّا مفتول العضل ، ممتلئاً حيوية ، وهو مع حيويته هذه شاب كسول متراخ جعجاع ، يقضى أيامه فى الأوهام والأحلام ومفاخرة الناس بالباطل ، ولا يفتأ يخاشنهم ويتشاجر معهم لأتفه الأسباب ، وهو مع ذاك أنانى نزق ومرواغ لا عهد له ولا غناء فيه . وقد أخذت أمه إيس Ace ذات مرة توبخه وتثرب عليه بسبب كسله وتراخيه وإهماله شئون المزرعة التى تركها له أبوه المتوفى ، ذلك الرجل المناضل المجد ، فما كان من بيرجنت إلا أن شرع يسخر منها ويستهزىء بها قائلاً : « يا أمى يا حبيبة القلب ، يا رثة الهيئة ، يا بشعة المنظر . . إنك صادقة فى كل ما تقولين ، فلا عليك من هذا أبدا ، وما عليك إلا أن تتذرعى بالصبر ، وتأخذى بالأناة ، فلسوف أصبح يوماً ما قيصرًا عظيم الجاه رفيع الشأن ، آمر وأنهى وأتصرف فى مقاليد الخلق . . » . ولكن أمه تنظر إليه شزراً ثم تعيره بأن كسله وتراخيه قد ضيّعا عليه تلك

العروس الجملية المفتان ابنة هجستاد التى كان بيرجنت يهيم بها غراماً ، والتى توشك أن تزف اليوم إلى زوجها .

ويفيق بيرجنت من أحلامه على هذا النبأ الفظيع ويقول لأمه : « ابنة هجستاد توشك أن تزف إلى رجل غيرى ! . . كيف ! . . تالله لأذهبن إلى هذا العرس فلأجعلنه مأتمًا على رؤوس ذويه ! » .

وينطلق الفتى المفتون إلى مكان العروس بعد أن يحمل أمه فيضعها فوق سطح كوخه حتى لا تقف فى سبيله . . حتى إذا كان عند مكان الاحتفال بزفاف منية القلب ، وحاول اقتحامه على المحتفلين حالت عصبة من الفلاحين الأقوياء دون دخوله لقذارة ملبسه ورثاثة هيئته ، ولما يعرفونه فيه من الميل إلى المشاكسة والمعاكسة ، فينتحى المسكين ناحية حيث تعطف عليه هذه الفتاة سولفيج إحدى الوافدات على العرس وتعطيه شراباً . . إلا أنها لا تكاد تسمع من صويحباتها ما يلوكه الناس عنه حتى تعرض عنه ، فيهيج هائجه ويدمى شعوره ، وينطلق إلى حيث يعب كثيراً من الخمر ملتمسًا السلوان فى بنت الحان ، بعد إذ فقد هذا السلوان فى الناس . . ثم يعود إلى مكان العرس وقد انتوى أمرًا . . ولا يكاد الناس يحسون ما يعتزمه من فتك وبطش حتى يتقدم إليه (العريس) نفسه راجيًا منه أن ينطلق إلى حيث حبست العروس نفسها فى بعض المخازن ؛ لأنها ترفض الزفاف إلى عريسها فيأتى بها على الرغم منها (!) . ويرحب بيرجنت بتلك الفرصة فينطلق إلى حيث حبست العروس نفسها .

ثم نشاهد إيس ، أم بيرجنت ، وقد أقبلت تحمل هراوة غليظة وأخذت تهدد وتتوعد، إذا سألها الناس عن خطبها قالت : إنها جاءت لتدق ولدها بهذه هراوة فتجعل منه فارسًا . . وبينما هى تقول هذا إذا هى ترى ولدها الفحل وقد حمل العروس فوق كاهله العريض القوى ، وراح يهرول بها فوق الجبل القريب ، فتصيح به أمه : «أسأل الله القدير أن تسقط سقطة شنيعة فتندق رقبتك . . خذ بالك أيها الغبى واعمل لرجلك قبل الخطو موضعها . . احذر أن تنزلق أيها الشيطان ! » .

وهكذا يفوز بيرجنت بمنية الفؤاد ؛ إلا أنه . .

إلا أنه لا يكاد يقضى منها وطره حتى يزهد فيها ويتخلى عنها ، ليبدأ سلسلة عجيبة من المغامرات . فها هو ذا يجوب الفلوات ويخترق المفاوز . . وها هو ذا يصل إلى مملكة الأقزام فيرحب به ملكهم ويزوجه ابنته القبيحة الهيئة الرثة المنظر . . لكنه لا يلبث أن يهجرها هجراً سريعًا ليطلق ساقيه للريح . . ويلاقى ذلك المخلوق الغامض الشائه ، الهولة ، الذى لا يتبين رأسه من رجليه ، ولا وجهه من قفاه . . هذا الغول المفزع العجيب بويج Boyg الذى يقف لبيرجنت بالمرصاد ، ويقطع عليه طريقه ، فلا يدعه يمضى إلى ما يريد أو إلى ما لا يريد . . إنه يقف له بالمرصاد ، ويواجهه أينما سار ، ثم هو يحول بينه وبين ذلك الجبل الشامخ الذى يحاول أن يرقاه فلا يأذن له ، حتى إذا أمله وضاق به راح يتحداه فى عزة وكبرياء . . وفى زهو ، وفى اعتداد ، وطلب إليه إن كان شجاعًا أن يبارزه ، ولكن الغول الشائه المفزع يسخر من بيرجنت ، ويقول له : « إن بويج العظيم يقهر دائمًا ولا يحارب أبدًا ! . . » وهنا يكون التعب قد نال من المسكين ، واليأس قد فل من عزمه وعزيمته ، فيقع على الأرض مكدودًا مهدودًا .

ويلمحه سرب من بواشق الطير فيقبل نحوه لينشب فيه أظافره ويعمل فيه مخالبه ، لولا نسوة يرين بيرجنت فيهتفن بالطير فيجفل ، ويزيد الطير رَنِينُ أجراس الكنيسة القريبة ذعرًا فيتركه ويولى بعيدًا عنه . . ولولا ذاك ما نجا بطل الأحلام الفحل من تلك الطيور الكواسر . . وعند ذلك يتقدم بويج الهولة إلى خصمه الضعيف مستسلمًا خاضعًا وهو يتحدث إلى نفسه قائلاً : « لا . . إنه أقوى من أن أحتمل منازلته . . فلقد كان من ورائه أولئك النسوة يعضِّدنه ويشددن من أزره ! . . » .

ثم ينتهى بيرجنت إلى غابة كبيرة لا أول لها ولا آخر ، فيستقر فيها ويبنى له فيها كوخًا حقيرًا يأوى إليه كلما ضرب فى الغابة . . ولا تكاد تمضى أيام حتى تطرق بابه صاحبته القديمة سولفيج التى عطفت عليه عند مشارف العرس ؛ فتعرض عليه أن تشاطره منفاه فى هذه الغابة التى هى وطنها الأول كما تدعى ، أو كما تقول له : « لقد سألونى إلى أين أنا ذاهبة ، فأجبتهم من فورى . . إلى وطنى . . وهكذا سعيت إليك لابسة نعلىّ الثلجيتين . . فلله كم أنا سعيدة بك ! » .

وبعد زمن قصير يغادر بيرجنت كوخه ، وفى أثره سولفيج حتى ينتهى بهما المسير إلى

بلاد ملك الأقزام الذى زوجه ابنته من قبل ، تلك الابنة التى أصبح لها الآن ولد من بيرجنت قبيح الخلق مثل أمه ، شائه المنظر مثل جده ، مفتول العضل مثل أبيه . . ولا يسع الملك إلا أن يتقبل اللاجئين الهائمين على وجهيهما كارهًا . لكن بيرجنت لا يمكث عنده إلا أيامًا ، ثم يضيق به وبابنته الشنيعة وطفلها المسكين . . بل بسولفيج ، فيعتزم الرحيل ، وتحاول سولفيج أن تتبعه لتكون خادمة له فى رحلاته وجوبه الآفاق ، ولكنه يرفض ، على الرغم مما تظهره له من الخوف عليه والرحمة به والمحبة له . . فإلى أين يمضى هذه المرة يا ترى ؟

يا عجبا ! . . إنه يأخذ الطريق التى تنتهى به إلى بلدته حيث يجد أمه العجوز وقد هدها المرض ، وراحت تجود بآخر أنفاسها ، متقلبة فى نفس الفراش الذى نام فيه بيرجنت طفلاً ونشأ فيه صبيّا . . ثم فر منه فحلاً . . هذا الفراش الذى كانا فى سالف الأيام يستعملانه زلاجة يمضيان بها على الثلج وحقول الجليد ، ويتخيلان أنهما يسافران بها إلى ذلك القصر المسحور العجيب الواقع غرب القمر ، ثم إلى ذلك القصر المسحور الآخر الواقع فى مشرق الشمس ! . .

ولا ينسى بيرجنت عبثه فى ذلك الموقف الجليل الذى لا يحتمل العبث ، والذى تحتضر فيه أمه وتجود بأنفاسها . . بل ها هو ذا يأخذها فيجعلها فى حجره ، ثم ها هو ذا يسند رأسها إلى صدره ، ويخترع لها حكاية تهون عليها سكرات الموت وتذهب عنها غمرات الفزع ، فيقول :

« إن حضرة صاحب الجلالة القيصر سوف يولم وليمة فاخرة فى قصره ، وإنها مدعوة طبعًا إلى تلك الوليمة . . بل هى راكبة الآن بالفعل فى زلاجتها إلى القصر الإمبراطورى ، بدليل رنين الأجراس الذى يدوى فى أذنيها ، وزمزمة الريح فى أشجار الصنوبر ، وبدليل هذه الأضواء التى تراها الأم المحتضرة ، التى تفيض على الدنيا من ذلك القصر الإمبراطورى فى تلك المناسبة السعيدة » . ثم ها هو ذا يزخرف تلك القصة فيدعى لأمه أنهما قد وصلا إلى قصر قيصر بالفعل ، وأنهما يقابلان الآن بالبشر والترحاب ، وأنهما قد جلسا بالفعل إلى المائدة القيصرية . . ثم ها هما يلتهمان ما فيها من طعام وشراب . . وأنه يضعها لذلك فى رعاية القديس بطرس ! ! . .

وهنا تفيض روح الأم المسكينة فيمد بيرجنت أنامله العابثة ليغمض عينيها الجامدتين وهو يقول : « آى . . آى . . أجل يا أماه العزيزة . . لقد بلغت الرحلة منتهاها . . وإنى أشكرك على ما أديت لى فى عمرى الطويل المبارك الحافل بجلائل الأعمال من (علق ! . .) وأغنيات كنت تغنينها لى فى أيام الطفولة لأنام . . » .

ثم ينحنى عليها بخده فيدنيه من فمها المتثلج ويتمتم : « وهذه هى أجرة السائق آخر الأمر » .

ثم ينطلق بيرجنت ليذرع فضاء الأرض من جديد . . وها هو ذا يبيع العبيد فى أمريكا ، ثم ينتقل إلى أقصى الشرق فيبيع الأصنام والخمر ونُسخ الإنجيل فى أطراف الصين . . وها هو ذا يقتنى الأموال الجمة التى ينتشلها منه بعض النشالين ، فيحتال لاستعادة ما فقد بانتحال شخصية أحد المدجلين باسم الدين (. .) ليبتز ما تصل إليه يده من أموال من يجوز عليهم دجله من الضاربين فى الصحارى الإفريقية . . ثم ها هو ذا يهرب آخر الأمر مع راقصة غجرية تدعى آنترا (عنترة ! . .) . . وهما يوغلان فى رحلتهما حتى يكونا أمام أهرام مصر ، وبين يدى أبى الهول ، يدجلان على السياح هناك (!) . . ثم يجلسان ليستريحا . . ويبدو له أن يظهر قوته وشبابه لآنترا ، عسى أن يبهرها ، فيأخذ فى رقصة طويلة مضنية ، وهنا تنتهز الراقصة البدوية تلك الفرصة فتنشل جميع أمواله . . ثم تهرب راكبة جواد بيرجنت ، لكيلا يلقاها بعد ذلك أبدا .

وعلى هذا النحو يضطرب بيرجنت فى حياته التى لا يهدف فيها إلى شىء ، ولا يكدح فيها إلى غرضه . . وها هو ذا يتوج ملكًا على المجانين فى مستشفى للمجاذيب . . وها هو ذا يصبح عالمًا من علماء الآثار فى مصر ينقب بجوار أبى الهول . . ثم ها هو ذا يجد نفسه آخر الأمر فى سفينة تطوى به البحار فى طريقه إلى بلاده النورويج . . ولا تكاد السفينة تقترب من شواطىء تلك البلاد ، حتى ترتطم ببعض الصخور فى عاصفة هوجاء فتتحطم ، ويتعلق بيرجنت هو وأحد طباخى السفينة بلوح ضعيف من ألواحها لا يكفى لإنقاذ أكثر من واحد من ضحاياها . . فإذا أدرك بيرجنت هذا لم يتورع عن ركل الطباخ المسكين ركلة قوية تبعده عن اللوح وتهوى به فى قرار

المحيط لكى ينجو هو من براثن الموت . . ثم يصل إلى الشاطىء بعد جهاد عنيف متصل ضد كل شىء . . حتى ضد نفسه ! . .

والآن ، وقد عاد المسكين إلى بلاده بعد حياة عاصفة مريرة ينظر فى صحيفة هذه الحياة فيجدها حافلة بالمغامرات التى أضنته وأجهدته ، فيتمننى لو استطاع أن يقضى مغرب عمره فى راحة وصفاء وفى عزلة عن الناس ، وبحسبه ما مر على رأسه من حوادث الأيام وتقلبات الزمان . . لكنه يخرج يومًا إلى الفلاة فيلقاه بها سباك لا يكاد يرى بيرجنت حتى يقول له : « هلم إلىّ يا بير . . هلم إلىّ . . فلقد أرسلت لكى أقذف بك فى بوتقتى كى أصهرك وأذيب لحمك وعظامك جزاء ما أسلفت فى غابر أيامك ! . . » ويضطرب بيرجنت ويحتج على الرجل احتجاجًا صارخًا لأنه ليس من العدالة أن يفقد روحه ونفسه وذاته ، لأنه ليس روحًا شريرةً كما يزعم هذا السباك . .

« وإن صح أننى رجل سوء فلست فاجرًا ولا أثيمًا بأى حال من الأحوال ! . . ». ويقول له الرجل : « إن هذه هى المشكلة . . لأنك لست خبيثًا موغلاً فى الخبث بحيث تستحق أن تلقى فى قعر سقر . . ولا صالحًا بريئًا من الذنب بحيث تستأهل أن تفتح لك أبواب الفردوس . . وهكذا لم يعد يجدر بك إلا أن تلقى فى بوتقتى لتبيد من الدنيا والآخرة . . وهذا حسبك من خطاياك ! . . ». ويعترض بيرجنت على هذا الكلام قائلاً : « إلا أنك لا تستطيع أن تقتل نفسًا حرم الله قتلها . ثم . . ألم أكن يومًا شخصية لها احترامها ولها خطرها ؟ . . ألم أكن فرداً مستقلاً بذاته ، كما كنت دائمًا مسيطرًا على نفسى ، مالكًا كل قواها وتصرفاتها ؟ . . » ويقول له الرجل (!) : « إنك كنت شخصًا أنانيًا ولم تكن يومًا ما مسيطرًا على نفسك ولا مالكًا لزمامها ! . . » . ويطلب منه بيرجنت أن يفسر له هذا اللغز قائلاً :

« وما معنى أن يسيطر المرء على زمام نفسه إذن ؟ . . » فيقول له السباك :

« إن تمام السيطرة على النفس هو إنكار النفس » ثم يقول له إنه لا يمكن أن يستحق الثواب والعقاب الذى يلائم النفس المستقلة المحددة المعالم ، ولذا وجب أن يقذف به فى بوتقة العدم إلاّ إذا استطاع أن يثبت أنه من العصاة الآثمين الذين يستحقون عذاب

الجحيم ؛ ويفضل بيرجنت الخلود فى نار الجحيم على العدم الذى لا يبقى له على أثر فى الوجود ، فيعترف بأنه من كبار المجرمين الخاطئين ، بل من مشايخ العصاة الذين أوغلوا فى الإثم . فهو قد باع الرقيق وغش مخلوقات الله وخدعهم ونافقهم وسطا على أعراضهم وأنقذ نفسه من الغرق على حساب نفس كانت تكافح الموت وتتشبث بنفس اللوح الذى كان هو متشبثًا به ؛ إلا أن الرجل ينظر إليه شزرًا ويقول : « إن كل ما ذكرت مما قدمت يداك إن هو إلا هنات هينات !! . . » .

ويكون الرجلان قد وصلا وهما يتحاوران إلى كوخ بيرجنت الذى أقامه لنفسه فى الغابة حيث نجد سولفيج التى تقدمت بها السن وقد وقفت بباب الكوخ تنتظر عودة بيرجنت ، وقد بدت شامخة مزهوة . . مؤمنة بعودة رجلها الضال برغم تقادم السنين وتتابع الأيام . . وكانت هى مرتدية أبهى ملابسها استعداداً للذهاب إلى الكنيسة ، وفى يدها كتاب صلواتها .

ولا يكاد يراها بيرجنت حتى يهرع إليها ، وحتى يجثو عند قدميها مستصرخًا مستنجداً ، طالباً إليها أن تصارح الرجل الذى يصحبه بذنوبه وخطاياه . . ولكنها لا تكاد تراه هى الأخرى حتى تقول له :

ـ « أو قد عدت إلىّ يا حبيبى . . حمداً لله ! . » .

ـ « بل اجهرى بكل ما أسلفت إليك من آثام . . اجهرى ! » .

ـ « آثام ؟ . . وأى آثام اقترفتها يا حبيبى ؟ . . أنت ؟ . . لقد جعلت أيامى كلها أغنية جميلة حلوة ! » .

ـ « ولكن . . من أنا ؟ . . وأين كنت ؟ . . ومن أين جئت ؟

ـ « إنك حبيبى . . وقد كنت دائماً فى يقينى وإيمانى . . وفى أملى . . وفى سويداء قلبى ! » .

وهنا يأتى صوت السباك من وراء الكوخ مجلجلاً :

«إذن . . فسنلتقى مرة أخرى يا بيرجنت . . وسنرى ! » .

أما سولفيج فتفتح ذراعيها لحبيبها قائلة :

« هلم إلىّ يا طفلى العزيز . . هلم إلىّ أدلك وأسهر عليك . . هلم فنم واحلم أحلاماً ذهبيةً سعيدة ! » .

أما بيرجنت . . فيبكى وينتحب ، ويدفن وجهه الخائف المحتقن فى حجر سولفيج .

* * *

ونحن بقليل من إنعام النظر فى هذه القصيدة المسرحية الطويلة لن يعجزنا أن ندرك أن إبسن قد كتبها ليرمز بها إلى قصة ذلك الكفاح المرير الذى يضطرم فى أعماق النفس البشرية والذى تشعله رغائب تلك النفس ، ثم تقف له الآداب والشرائع والتقاليد بالمرصاد تكفه تارة وتخمده تارة أخرى ، لكنه لا يلبث فى كل مرة أن يشب كالنار المدمرة من جديد . . لقد كانت حياة بيرجنت أشبه بكابوس مخيف من تلك الأحلام المفزعة التى يحاول النائم أن يبعدها عن روحه وأن ينقذ منها نفسه بالاستيقاظ من نومه الكريه ، ولكنه بمحاولاته المتكررة لا يزيده إلاّ تعقيدًا وتمكينًا من نفسه حتى يكاد أن يقضى عليها ؛ وازدراء بيرجنت فى حفلة العرس هو أول أطوار هذا الكابوس ، ومنها أيضاً إنذار أمه له بضياع محبوبته وفوز رجل آخر بها ؛ وهل يستطيع أحدنا إلا فى المنام أن يحمل عروسًا ثم يولى بها هارباً فوق قمم الجبال ؟ . . لقد كانت هذه العروس رغبة مكبوتة من رغبات بيرجنت ، ولكنها لم تكن كل رغباته ، ولذلك لم يلبث أن زهدها ثم راح يهيم على وجهه . . أو هام به كابوسه ليزوجه من بنت ملك الأقزام القبيحة الشائهة . . فماذا أطمعه فيها إلا أنها فى نظر أحلامه ابنة ملك وأنه كان يجرى وراء أمنية من أمانى الكسالى الذين يحلمون بالأمانى الكبار ثم لا يبذلون فى سبيل تحقيقها أى مجهود إلا تلك الأحلام التى تشبه أحلام السكارى ! . . ثم هذا المخلوق الشائه العجيب (بويج) الذى أخذ على المسكين طريقه ، وقوله : إن بويج يقهر دائماً ولا يحارب أبداً . . هل يرمز به إبسن إلى الزمان ؟ . . هل يرمز به إلى القضاء والقدر؟ . . هل يرمز به إلى الموت الذى لا ينتصر عليه أحد ؟ . . ثم هذا السرب من الطير ما خطبه ؟ . . ثم

أجراس الكنيسة ما شأنها ؟ . . وتلك النسوة اللائى ذدن الطير عن بيرجنت ، وذعر بويج بعد ذلك واستسلامه بعد أن تصايحن بالطير فولت الأدبار . . وانتصار بيرجنت فى المعركة التى لم يبذل فيها أى مجهود . . بل خاضها وهو مغمى عليه ؟

ثم ما معنى أن يبيع الرقيق فى أمريكا ، والخمور والأصنام والكتب المقدسة فى الصين ؟ . . ألسنا جميعاً نصنع هذا وإن لم نعرف أننا نصنعه ؟ ! . . ثم ضياع ثروته فى غمضة عين بعد أن ظل زماناً يكافح فى سبيل جمعها وكنزها بكل تلك الطرق الوضيعة؟ . . ثم ادعاؤه النبوة فى صحارى إفريقيا ؟ . . ألسنا جميعًا ندعى النبوة فى فترات تمر بنا أشبه بفترات الشطح عند المتصوفة ؟ ! . . ثم غرق السفينة وقتله الطباخ حتى ينجو ؟ . . ألسنا كلنا نفعل هذا فى معركة تنازع البقاء التى نحياها ونحاول أن نرتفع فوقها بإنسانيتنا فلا نستطيع ؟ ! . . ثم هذه القبلة التى جعلها أجرة السائق بعد رحلة الحياة التى قطعتها به أمه عندما توفيت ؟ . . ثم مشهد السباك الذى أقبل ليذيبه فى بوتقة العدم ، لأنه لا يستحق البقاء . . لا فى الجنة ولا فى الجحيم ؟ . .

ما أروع المسرحية الرمزية ، بل الأدب الرمزى إذا لم يكن هلوسات نفس محمومة كالذى حاوله بعض شعرائنا فلم يفهم الناس من هلوساتهم شيئا !

❋ ❋ ❋